صراط

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (1806) السنة السابعة

الخميس (27) آيار 2010

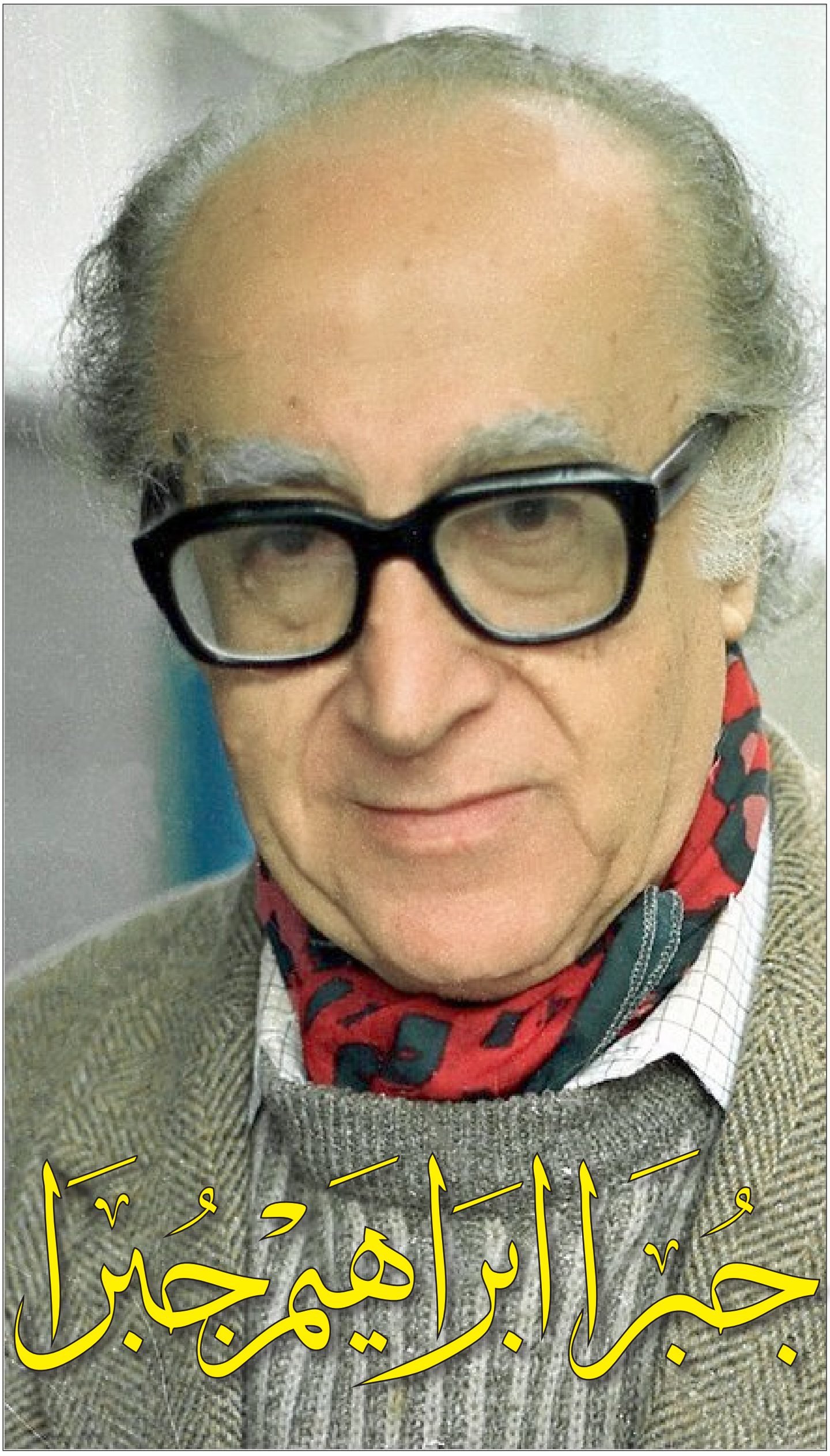

جُبرا ابراهيم جبرا

التغريبة الأخيرة لحامل الزيتون

5

مكتبة جبرا

8

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

أشك في أن ذلك الإرهابي الذي فجّر نفسه قرب القنصلية المصرية عبر منزل الكاتب الكبير الراحل جبرا إبراهيم جبرا في شارع الأميرات، حي المنصور، في بغداد، كان يعرف أنه يدمر بفعلته تاريخ مرحلة ثقافية خصبة امتدت من خمسينيات القرن الماضي حتى يوم وفاة جبرا في كانون الاول ١٩٩٤.
وهل ثمة فارق بين تدمير الثقافة وتخريب العلاقات بين الدول ؟
الأمران ينبثقان من بئر التعصب وشهوة الدم التي تفور في عقول المتشددين وعشاق السلطة وضواري السياسة التي تدمر بأظلافها المتوحشة منجزات العقول المبدعة وتراث الفن والفكر.

ثلج لجبرا ابراميم جبرا ورماد لمتحفه

لطفية الدليمي

١

قبيل رحيله المفاجئ بيومين ، قال لي الناقد والروائي جبرا ابراهيم جبرا في آخر مكالمة بيننا :
– الدنيا برد، خرجت للتمشي كعادتي كل يوم في شارع الأميرات ، كدت أتجمد، فعدت مسرعاً إلي البيت ، وهاتفتني صديقة رائعة من عمّان تخبرني بسقوط الثلج ، غبطتها وقلت لها أتمنى أن أتمشى معكم تحت انهمار الثلوج – تعلمين لطفية – أنا نشأت في القدس ، الثلج كان رفيق طفولتي وشبابي، كم أحب الثلج ، لا، لن أتمشى بعد الآن في نهارات بغداد الباردة ، برد بغداد يخترق العظام، ما عدت أحتمل البرد، ليت السماء تهبنا بعض ثلجها لندفأ بعده.

في ذلك الغسق الشتائي البعيد، رأيته عائداً إلى بيته ملفعاً بشال صوفي بلون المشمش ومرتدياً جاكيتة من المخمل البني وشعره الأبيض المضطرب يتمرد على حقيقة سنواته الثمانين ، ويمنحه سحنة شاب في إهاب شيخ جليل. أستحضر تلك الصورة الأخيرة ، فلا أجد سوى الرماد الذي بقي العلامة الوحيدة في شارع الأميرات يشير إلى مصير المدينة التي أحبّها وأحبّته وتزوج إحدى بنات أسرها العريقة ليوثق عقد عشقه لبغداد. بقي الرماد والشجر المحترق والأنقاض شهودًا على جائحة الإرهاب وإهمال المعنيين لإنشاء متحفه وحماية إرثه الثقافي الهائل من رسائل ومخطوطات وترجمات ومجاميع شعر وأعمال نقدية ومئات الأعمال الفنية من لوحات ومنحوتات وقطع فخار لعمالقة الفن العراقي في القرن العشرين ومن بينها لوحاته وتخطيطاته الساحرة.

لا ثلج الآن ولا برد يردع خطاه المسائية عن السير تحت صفوف النخل الرشيقة في شارع الأميرات ، فقد جلل الرماد والسواد فيلّته المهجورة بعد الانفجار الإرهابي ، وتهاوت أشجار اليوكالبتوس والمكتبة الصغيرة التي كنا نجالسه فيها ، وضاع جهد عمر من الإبداع وإرث مرحلة خصبة من عمر الثقافة العراقية ، وهمد صوت الموسيقى في ممرات بيته إلى الأبد .

٢

كان يقول لنا بصوت بطلته سراب عفان : "ألا ترى يا نائل أنني قررت الموت وأنا في القمة من صحوي الفكري وصحوي الجسدي؟". في كامل صحوه وشغفه بالفن حضر قبل ليلة من رحيله، المعرض الاستعادي للانطباعيين العراقيين وتحدث عن الحركات الفنية العراقية وجمعية نقاد الفن واتفق مع بعض نقاد الفن على تنشيط حركة النقد الفني عبر محاضرات ومنشورات ، وفي الليلة ذاتها قرأ على الهاتف آخر قصيدة له لصديقة شاعرة ، وسألها عنا ، نحن المجموعة التي كانت تزوره تلك الفترة ، ونقرأ أعمالنا عنده ويقرأ لنا قصائده ، قال للشاعرة : تعالوا جميعاً وفي أقرب وقت لنستعيد أجواء جلستنا الأخيرة ونستمع إلى بعض الموسيقى ، سأسمعكم ما تبقى من تراتيل المغنية الأوبرالية السيدة تانيا ناصر التي أدتها في الكنيسة البيزنطية في عمان ، وأقرأ لكم المزيد من قصائدي الجديدة، شبيهة قصائد الهايكو...

كنا كلما التقيناه في أيامه الأخيرة، نغادره ورجفة الخوف تنوش قلوبنا ، ولا ننطق مفردة الفقد التي كانت تتراءى لنا في ما وراء الليل . وذات مساء خريفي شيّعنا بمودته الغامرة لدى باب داره بعدما احتسينا القهوة التي أعدها لنا بيده وقال : لا تغيبوا عني ، أسعد بحضوركم كثيراً. تعلمون كم أنا وحيد هذه الأيام. هاتوا كل ما تكتبون.
عندما أغلق الباب واختفى في الليل ، خنقتني غصة ، وبحت للصديقة الشاعرة دنيا ميخائيل بمخاوفي ، ففاجأتني بالهاجس ذاته : أحس انه على وشك الغروب. كنا نرى ببصيرتنا اقتراب الزائر الأخير ، ونسمع حفيف الأجنحة ، ونحس مذاق الرماد في أفواهنا.

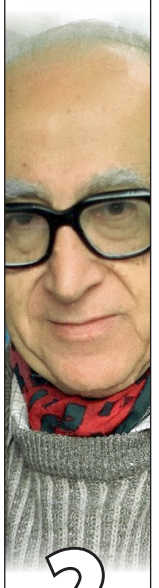

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

٣

قبل أسبوع من رحيله ، أعارني نسخته الوحيدة من روايته "يوميات سراب عفان"، التي لا تزال في مكتبة بيتي المهجور في بغداد ، وعلّق ضاحكاً : أي مصادفة ، لو كنت قرأت كتابك "عالم النساء الوحيدات" ، لقلت ربما حدث شيء من التأثر والتأثير بيننا ، لكن لا أنا قرأت كتابك ولا أنت. كتابك صدر عام ١٩٨٦ وروايتي صدرت عام ١٩٩٢. اقرئيها ، ستجدين فيها تقنية روائية مختلفة ستعجبك لطفية ، لأني أعرف مزاجك الرؤيوي وتوقك لتخطي المحددات. نتحدث عنها في زيارتكم التالية.

تهاتفنا قبل ثلاث ليال من غيابه المباغت ، وكنت موشكة على الانتهاء من قراءة الرواية. أخبرته أننا سنتحدث عنها عندما نلتقيه مساء الأربعاء، وقد كتبت قراءة انطباعية عنها. في صباح الاثنين ١٢ كانون الأول ١٩٩٤، اتصل بي كاتب صديق يبلغني نبأ رحيل جبرا، ويطلب مني كتابة كلمة في وداعه. قلت له : لا أستطيع الكتابة ، وعاجزة عن البكاء أيضاً .

غادرنا جبرا وألغى مواعيدنا في مفكرته من دون أن يخطرنا بعزمه السري على الرحيل. قال لي بنبرة اعتذار وهو يتأمل كتابي "عالم النساء الوحيدات": تأخرت لأكتب عنك، كنت أخشى أن لا أجد أحدا من كتّابنا يقترب من تشكيل النص الجديد بحس فني وطاقة رؤيوية تأملية، ويعتمد على ثقافة العصور ويجول بين الأزمنة والموسيقى حتى قرأتك.

٤

المقدسي المفعم بالمحبة وعنفوان الحياة حتى آخر الكلمات ، المبدع الذي لبث في فتوة منجزه زاخر القلب بالسماحة والتواضع ، هذا المقدسي كان صلباً كسنديانة في جبل المكبر، رقيقاً وعذباً كقطرة مطر في قيظ بغداد الجحيمي ، غافلنا ذلك اليوم وأعلن انتهاء المجابهة بين قلبه المتعب وحياة الوحدة ، وعقد ميثاق الهدنة مع الزائر الأخير. تخلى عن احتفائه المتجدد بالطبيعة والموسيقى والجمال والفنون ، وأسلم يده التي تزخرفها وشوم الزمن إلى الزائر الملحاح ، يسحبها إلى ما وراء الزمان ، وفاز الموت كما تراءى للذين بلا حلم ولا مخيلة. لكن أستاذنا ظل هو الفائز في سباق الموت، بما ترك وما أبقى في ذاكراتنا وحيواتنا ونسقنا الثقافي منذ خمسينيات القرن الماضي حتى لحظة الرحيل.

٥

حين ذهبت مساء لأحضر التشييع ، كانت الجنازة قد مضت بحشد المشيعين الرجال دون النساء إلى مقبرة محمد سكران ، شرق المدينة التي أحبها ومات فيها. وفي تلك اللحظات فقط بكيت عندما لمحت ظلال الخراب تزحف على واجهة البيت المستوحش بغياب صاحبه. وقفت وسمعت موسيقى باخ تتسلل من نافذة المكتبة التي استحالت اليوم ركاماً ، ولم أترجل من السيارة ، فقد كان طيفه منشغلا بلذة الغياب وراحة الخلود ، ولن يسمع طرق أصابعي على النافذة الموصدة على صدى ضحكته وظلال الكلام. قلت لحظتها : ترى ، من سيعدّ لنا القهوة الشهية بإصرار مضيف كريم وأب حنون ، بعدك يا أستاذنا ؟ كان يقول لنا عندما تبادر واحدة منا لإعداد القهوة في مطبخه :

– لا يمكن أبداً، يجب أن أعملها بنفسي.

وحين نعترض ، كان يقول بنوع من الفخر والتأسي :

– أربعون عاماً وأنا أغلي القهوة لرفيقة العمر لميعة حتى يوم رحيلها قبل عامين ، لم أتوقف يوماً عن إعداد القهوة لها ، القهوة رابط إنساني رقيق يا سيداتي ، أنا أجيد غلي القهوة كفلسطيني مقدسي ، لا تتدخلن في اختصاص عمري.

تقول دنيا أداليا : بل نحن سنعدّها ، استرح أستاذ، الله يخليك.

يقول بإصرار : هذه فرصة لن تتاح لسواي من الرجال ، أن أعد القهوة لسيدات رائعات ومبدعات رائعات أيضاً .

٦

بعده لم يحدثنا أحد قط عن موسيقى الباروك وقدّاسات باخ الدينية ، ولم نعرف أحداً سواه عرّب كلمة "سويت" وجعلها "متوالية موسيقية"، وما عدنا ننصت إلى التراتيل المقدسية بصوت تانيا ناصر مع عزف بيانو السيدة أغنس بشير العراقية – الجورجية أرملة الموسيقي الراحل جميل بشير.

ذات مساء ، عرض لنا لقاءات متلفزة معه ، قال: أتعلمون ؟ أنا لا مورد لي سوى اليسير الذي يأتيني من كتبي ، لذا اطلب مكافأة عن أي لقاء متلفز أو إذاعي أو صحافي ، هذا جهد ووقت. العازف بعزفه والمغني بصوته والكاتب بكلماته ، وأنا لا عمل لي سوى صوغ الكلمات. هكذا يفعلون في الغرب ، يعيشون من جهدهم في الكتابة وصوغ الكلام . لا تفرطوا بالكلمات ، فهي ثروتكم الوحيدة ومهنتكم البائرة أيضاً في هذا الزمان.

ونحن في زيارته، انفرط شريط التسجيل من الطراز الدائري القديم الذي كان يشغله على جهاز تسجيل "أكاي"، وجاهدنا جميعاً لإعادة الشريط المنفرط الرقيق المشتبك إلى البكرة، لكن من دون جدوى، فقال : لا بأس ، هذه فرصة لأطلب نسخة منه على الفيديو ، وفي المرة التالية كان قد هيأ شريط الفيديو للحفل الموسيقي ذاته ، وهرع إلينا كطفل فرح لدى الباب يفتح لجمعنا الصغير ويرحب بنا عندما طرقنا زجاج نافذة المكتبة التي دمرها التفجير الوحشي. كان جرس البيت عاطلا ، والموسيقى دافقة في الغسق ، فنقرنا كعصافير المساء الخجلة على الزجاج ، وعرف نقراتنا الحيية وطفح وجهه بشرًا وهو يفتح لنا باب الحكاية.

٧

كان يقول لي: إن فن الكتابة، فن النص المعاصر، يجب أن يؤسس على وعي حاد بالزمن ، الزمن العمودي بطبقاته المتعاقبة ، ويقوم أيضاً على استيعاب ثمار الفكر والفلسفة والمعرفة والموسيقى والفنون كلها ، الأدب يجب أن يتقدم الجموع لا أن يتبعها وينصاع لها، الأدب يقود ولا يقاد.

يقول أيضاً : الكتابة مثل التأليف الموسيقي ، أنا حرصت على هذا في جميع رواياتي وحياتي أيضاً . أحببت كتابتك يا لطفية لأنك أمسكت بالسر، أنت فعلتها ، نصوصك تحفل بالموسيقى والجمال وتستحضر الأزمنة بسلاسة فيوض موسيقية.

وعيت الدرس قبل حديث جبرا وتمسكت به بعده، واستغرقتني موسيقى الكتابة ، وكنت كلما أنجزت نصاً أو رواية ، تذكرت كلماته الحانية وموسيقى الباروك التي كان لا يمل سماعها. كان باخ حاضرًا كل مساء، موسيقى كنسية وموسيقى دنيوية تغمر فضاء المكتبة الصغيرة وممرات بيت جبرا.

٨

كان يعتزم الشروع في كتابة رواية جديدة، وبدا أنه مسكون بأجوائها وشخوصها، قال لي: المهم في الرواية هي الصفحات الثلاث الأولى، وبعدها تتدفق الرواية مثل سيل، أنا محتشد بتفاصيل هذا العمل، لكن المشكلة الوحيدة هي في اتخاذ قرار البدء، متى يقرر المرء الشروع في العمل، ربما أبدأ قريباً.

أسأله: وماذا تكتب الآن؟

– مسوّدة كلمة كان مفترضاً أن ألقيها في "ملتقى الشعر العربي" في تونس ، حيث سيجري تكريمي هناك. إنما تعرفين السفر مرهق. أجد صعوبة في السفر في السيارة الآن وفي برد الشتاء، لا طيران في العراق بسبب الحصار، سيقرأها الصديق ماجد السامرائي نيابة عني . لا، لن أسافر، لا طاقة لي على تحمل مشاق السفر.

نعم، عرفنا ذلك. فقد غيّر وجهة سفره إلى الأقاصي وغادرنا دونما وداع.

هذه الشذرات من الذكريات، بعض من مشروع لم يكتمل عن الراحل جبرا ابراهيم جبرا، أعيد الآن للملة بعض شتاتها إثر فاجعة الانفجار التي استهدفت السفارة المصرية في شارع الأميرات، حي المنصور، ودمرت بيته المجاور للسفارة .

بيت جبرا والثقافة العراقية

ياسين النصير

لم تكن كلمتنا بخصوص تخلي مؤسسات الدولة ومن بينها وزارة الثقافة عن دورها الوطني في متابعة الثقافة وشؤون المثقفين ، مجانبة للصواب،فالشاهد الأكثر إيلاما هو ما حدث لمقتنيات وبيت الروائي والشاعر والمترجم والرسام، والمثقف الكبير جبرا إبراهيم جبرا، الذي دون أهم مراحل نمو الشعرية والفنية في العراق، والرسام الذي شارك في تأسيس عدد من الجمعيات الفنية، والروائي الذي كتب عن العراق وبغداد كما لو كان يكتب عن فلسطين والقدس، والإنسان الذي شاركنا محننا القديمة والجديدة، ورفض أن يتخذ من غير العراق سكنا. هذا المبدع الكبير يلقى اهتماما من قبل الصحافة الأمريكية والإنجليزية لما حدث لبيته بعد أن هدم وسرقت لوحاته ومقتنياته، في حين لم نجد أي اهتمام من وزارة الثقافة أو الدولة بما حدث له.بالأمس التقينا بصحفي من أصل لبناني يعمل في صحيفة أمريكية جاء للعراق خصيصا لمتابعة ما حدث لبيت ومقتنيات جبرا، وإحدى محطاته الصحفية كان اتحاد الأدباء ليلتقي برئيس الإتحاد الأستاذ فاضل ثامر الذي أبدى أسفه واستغرابه أيضا من أن المعلومات التي يعرفها الصحفي الأجنبي عن جبرا كثيرة ودقيقة بينما لم نعرفها نحن،لا وزارة ولا مؤسسة كاتحاد الأدباء، هذه المشكلة لا تخص أفرادا ينقبون بين الكوارث عن بيت قديم أو سكن لشاعر أو مثقف عراقي توفي أو على وشك مغادرتنا بقدر ما يكون ذلك من اختصاص جهات إعلامية وثقافية يفترض أن تكون لديها مدونة دقيقة كبقية وزارة الثقافة في العالم بأسماء المثقفين الأحياء والموتى وبأحوالهم وعناوينهم وأنشطتهم واختصاصهم،ليس من أجل أن تسد غائلة لهم أو لأسرهم،– وهي أبعد ما تكون عن ذلك– بل من أجل أن تكون جزءا من مهمة ترسيخ الثقافة الوطنية.

حسنا.. نهب بيت جبرا بعد أن هدم، ونهبت معه ثروة لا تقدر بثمن هي خبرته في اقتناء لوحات الرسامين، ونهب معه كل ما يمت بصلة لجذر مثقف عاش في بغداد ونهل من مائها وترابها وضمنها خبرته ونشاطه.فهل نتدارس الموقف ونحاول ثانية لملمة نشاطنا باتجاه أن يكون المثقف – كل مثقف– تحت عناية جهة ثقافية معينة؟؟

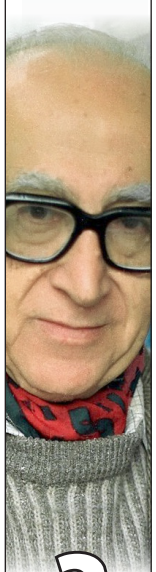

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

تفجير السفارات دمر "نصف قرن" من ذاكرة بغداد . . . والحادث مر مرور الكرام

انتوني شديد ×

ذكر تقرير العقيد حسين الذي دون حادثة انفجار سيارة مفخخة امام السفارة المصرية في بغداد في نيسان الماضي، ان الاضرار المادية المهمة كانت مقتل سبعة عشر شخصا واحتراق عشر سيارات، اضافة الى احتراق البيت الذي كان امام السفارة واصابة عشرة بيوت من تلك التي تحيط بها باضرار معتدلة.
لكن تقرير العقيد حسين لم يذكر مئات الكتب، من مسرحيّات تشيكوف إلى روايات الكاتب الفلسطيني غسَّان كنفاني، المخزونة في حقائب وصناديق وفي باحة السلم. وهو لم يتكلم عن رسوم شاكر حسن آل سعيد هناك، وهو واحد من كبار فناني العراق. ولم يتطرق الى منحوتات زميله محمد غني حكمت. وما كانت هناك من ملاحظة عن الحجارة التي تم جلبها من مدينة بيت لحم مكان مولد جبرا ابراهيم جبرا التي نفى منها وساعدت في بناء البيت ليكون ملاذا عالميا وجسرا بين الشرق والغرب.

وكذلك لم يشر تقرير العقيد حسين للبيت بوصفه عائدا للروائي والشاعر والرسام والناقد والمترجم العربي المعروف جبرا ابراهيم جبرا والذي بناه، قبل نصف قرن تقريبا، في شارع الاميرات وعاش فيه لحين موته عام ١٩٩٤.

وهذا المقال ليس خبرا لكي ينثال الحزن على دمار المنزل. لكن لم يكن هناك من احتفاء بالميت. وكانت بضعة تعبيرات تدل على التقدير مثل قول الناقد فاضل ثامر «لقد رأى الناس هنا الكثير من الاشياء».

لكن في همسات الأصدقاء والزملاء، الذين يتذكرون جبرا وهو يستمع الى باخ اثناء الكتابة، ودخان غليونه يحوم في الغرفة، فان المنزل يمثل شيئا عظيما جدا قد تمت خسارته. والبعض منهم يعتبر دمار المنزل مثل المراثي التي تكتب على شواهد القبور لتنعى غياب الانواع، ونهاية العصور في العراق والعالم العربي، ولأفول المثالية، التي مثلها جبرا ايام النزاعات والحروب.

ولد جبرا في ١٩١٩ لعائلة مسيحية، و ا ستقر في بغداد بعد حرب ١٩٤٨. نال درجة علمية من كامبردج، مما اهله للدراسة في هارفارد، وفي السنوات اللاحقة انضم إلى النحات جواد سليم والجيل الرائع من الفنانين الآخرين الذي جعلوا العراق رائدا للثقافة العربية.

وكان جبرا بين الاكثر بروزا. وبوصفه كاتبا فان عمله الذي لاقى الترحيب هو تحديث الرواية العربية. وبوصفه لغويا فانه ترجم كل شئ ابتداء من سونيتات شكسبير الى رواية فولكنر «الصخب والعنف».

ويقول روجر ألين، أستاذ الأدب العربي في بنسلفانيا والذي كان صديق جبرا وساعد في ترجمة اثنتين من اشهر رواياته «كان مثالا حيا في عملية الترجمة، فهو يأخذ شيئا من ثقافة ويحمله بشكل حرفي عبر الخلافات، ليضعه في ثقافة اخرى».

وبيته البسيط ذو الطابقين المحاط بعطر فلسطين اشجار البرتقال، كان يعكس ذوقه. ويتذكر صديقه النحات محمد غني حكمت ان جبرا وضع واحدة من منحو تا ته الخشبية على الموقد والاخريات كانت في المدخل وغرفة الطعام.

لم يتبق سوى بضعة صور احداها لجبرا يرتدي سترة زرقاء ووشاحا أحمر والغليون في يده. ويقول السامرائي والجيران ان النهابين سلبوا كل الاشياء الثمينة في البيت وبضمنها الجواهر الثمينة للسيدة ابراهيم بعد وقوع الهجوم.
وبقيت وسط الانقاض صورة من مقتنيات السيد جبرا ابراهيم جبرا لطلاب صف من جامعة بغداد.

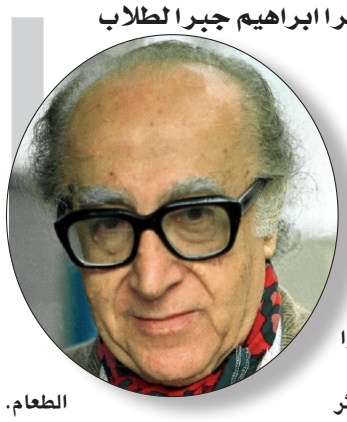

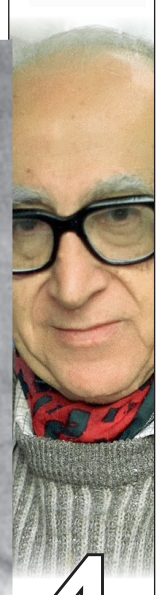

امـا صديقه الناقد مجيد السامرائي فيتذكر لوحات الفنانين العراقيين مثل راكان دبدوب وسعود العطار ونوري الراوي، ويقول «كيف اصفه؟ لقد كان البيت معرضا للفن العراقي».

وفي أغلب الأحيان كان البيت تملؤه الموسيقى التي يعتبرها جبرا الفن الوحيد الصافي. وفي احدى المرات كتب جبرا لصديقه روجر آلن «اي موسيقى ستجلبها معك ستجعلني سعيدا وخصوصا موسيقى القرن الثامن عشر وتلك الاقدم. وعندما ستزورنا ستجد اني املك القليل منها جدا، انها حرفيا خبزي اليومي انها تمد عقلي وكتاباتي بالحياة».

لقد كانت ابواب بيته مفتوحة دائما. ويقول اصدقاؤه انه هو من اقنع الروائي عبد الرحمن منيف ليكتب «مدن الملح». ويتذكر عيسى بلاطة استاذ الادب العربي المتقاعد في جامعة مكغيل في كندا والذي كان صديقا لجبرا لفترة طويلة ان صالونه المتسم بخاصية ثقافية نبعت من عقله كان مفتوحا دائما للشعراء والفنانين والمفكرين وسواهم.

وعندما مات جبرا عام ١٩٩٤، انتقلت قريبته رقية ابراهيم الى المنزل. ويتذكر مجيد السامرائي انه اخبرها «ان كنوز جبرا بين يديك».

لكن الارث تحول الى ركام، ولايزال دم السيدة رقية ابراهيم يلطخ الجدار حيث سقطت قتيلة بفعل القنبلة المتفجرة التي فصلت رأسها عن بقية جسمها، ودفنت في الانقاض لمدة يوم كامل قبل ان ينتشلها عمال الدفاع المدني. وهناك لافتة معلقة على البيت تنعاها وابنها جعفر المقتول معها.

ويعتقد السامرائي ان نحو ١٠ آلاف من رسائل جبرا احترقت في الارجح. وهناك تسجيلات لشوبان وباخ وفيفالدي سُدَّ عليها المدخل، وتجمع التراب على مسجلة صوت قديمة. اضافة لصورة بالاسود والابيض لطالبات من صف في جامعة بغداد يرتدين التنورات القصيرة. وكان في باحة السلم ملحق التايمز الادبي البريطاني يعود لتاريخ ١٦ نيسان ١٩٩٣.

ولم يتبق سوى بضعة صور احداها لجبرا يرتدي سترة زرقاء ووشاحا أحمر والغليون في يده. ويقول السامرائي والجيران ان النهابين سلبوا كل الاشياء الثمينة في البيت وبضمنها الجواهر الثمينة للسيدة ابراهيم بعد وقوع الهجوم.

وبقيت وسط الانقاض صورة من مقتنيات السيد جبرا ابراهيم جبرا لطلاب صف من جامعة بغداد.

وتُركت الكتب العربية والانكليزية (لم تسرق) الشهيرة ومنها «صورة سيدة» لهنري جيمس و«اليقظة العربية» لجورج انتونيوس، وكذلك الكتب غير الشهيرة. وكانت هناك نسخة من كتاب «اساطير بلفنج» او جمال الاساطير كتبه سنة ١٩١٣ توماس بلفنج، وكان الكتاب مفتوحا على بيت من الشعر لسكوت يقول «اه فكر كيف انه وليومه الاخير حين جاء الموت مطالبا بفريسته».

ويقول جاره مهدي محمد الذي فقد حفيدته في التفجير «لم يعد احد يتذكره هنا فكل الذين يعرفونه رحلوا».

ولايتذكره احد كذلك في شارع المتنبي الذي يعد ملاذ المثقفين العراقيين والذي كان يتردد عليه جبرا. وتنتشر المكتبات في شارع تعرض هو الاخر لهجوم. وعرضت مكتبة واحدة فقط احدى رواياته «ملك الشمس». وبإلماحة تقدير ليس الا، يتذكر العديد من باعة الكتب اسمه فقط من دون ان يعرفوا عمله.

ويقول محمد رضا الذي يعرض رواية

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

جبرا ابراهيم جبرا..

التغريبة الأخيرة لحامل الزيتون

أحمد فاضل

لم يتعرض كاتب او شاعر للاهمال والنسيان كما تعرض له اديبنا وشاعرنا جبرا ابراهيم جبرا هذا الانسان الرائع بكل
معنى الكلمة ، صائغ القوالب الادبية التي توزعت بين قالب روائي وشعري وترجمة وفن تشكيلي ونقد . جاء يحمل صرة سفره الطويل من بيت لحم بفلسطين تاركا" وراءه ضيعة صغيرة تظللها اشجار الزيتون هي كل ماكان يملكه جده لابيه ، ولم يكن بيت المقدس ليبعد عن تلك الضيعة سوى فراسخ معدودة لكنه اصبح الان في نهاية العالم بعد ان حط رحاله في بغداد او كما كان يصف تلك المسافة ..
ولد في عام ١٩١٩ من أب سرياني ارثوذكسي الاصل في بيت لحم بالقدس وما ان تعرف على كنائس المدينة التي تلتقي مع مساجدها بحائط واحد حتى شعر بأقدام اليهود وهي تجوس تلك الاماكن فحمل حقيبته مسافرا" يتبعه الالاف من ابناء فلسطين حتى كانت بغداد في اربعينيات القرن الماضي ملاذا" له ومنفى ..
كان اديبنا الشاب قد تسلح بالعلم فلاغرابة ان تتلقفه جامعات العراق ليدرس فيها الادب الانكليزي ، وهناك تعرف على النخبة المثقفة فعقد علاقات متينة مع اهم الوجوه الادبية التي كان لها حضور متميز ليس على المستوى المحلي فقط بل على المستوى العربي وخاصة الشاعر بدر شاكر السياب (١٩٢٦-١٩٦٤) وعبد الوهاب البياتي (١٩٢٦-١٩٩٩) فكانت له معهم جولات ادبية اتسمت مرة بوشيجة نقدية لديوان السياب (شناشيل بنت الجلبي) او بمماحكة هي اقرب منها للكوميديا السوداء لقصائد البياتي الذائعة الصيت ، فكانت تلك الجولات تعرف طريقها الى الصحف والمجلات الادبية التي صدرت في بغداد وبقية المدن العربية خاصة مصر التي كانت مرتعا" خصبا" لادب الرواية والنقد قبل ان يعرف الشعر الحديث مكانه اليها ..
في هذا الجو الادبي المشحون بغرائبية الموقف استطاع جبرا ان يقدم للقارئ العربي تعريفا" بأهم الكتّاب الغربيين وعرفهم على المدارس والمذاهب الادبية الحديثة ولعل ترجماته لشكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) من اهم تلك المعاريف وكذلك ترجماته لعيون الادب الغربي مثل نقله لرواية (الصخب والعنف) التي نال عنها الكاتب الامريكي وليم فوكنر (١٨٩٧-١٩٦٢) جائزة نوبل للاداب ، ولم يقف كاتبنا عند حدود الترجمة بل اشتغل في الشعر وفي الرواية ومن اهم اعماله :- السفينة / البحث عن وليد مسعود / عالم بلا خرائط بالاشتراك مع الكاتب المبدع الراحل عبد الرحمن منيف (١٩٣٣-٢٠٠٤) وكذلك كانت له صولات وجولات معروفة في مجال النقد ويعتبر جبرا ابراهيم جبرا من اكثر النقاد حضورا" ومتابعة في الساحة الثقافية العربية .
ولم يكن مقتصرا" على الادب فقط بل كتب عن السينما والفنون التشكيلية علما" انه مارس الرسم كهواية وله لوحات جميلة توزعت على اصدقائه ومعارفه ولم يسع احد منهم لجمعها وضمها في معرض موحد وهذا مما ساعد على نسيان جانب مهم من جوانب ابداعاته .
اما كتب الدراسات فله ستة منها :- ترويض النمرة التي تعتبر من اهم كتب الدراسات التي نشرت وحازت الاعجاب والرمز والاسطورة وما قبل الفلسفة هذا من جانب اما رواياته فله اكثر من ٩ روايات ابرزها :- البحث عن وليد مسعود التي صدرت عام ١٩٧٨ / صراع في ليل طويل عام ١٩٥٥ / السفينة عام ١٩٧٠ / اما مجاله الشعري فقد اتسع لثلاثة دواوين هي :- تموز في المدينة / المدار المغلق / لوعة الشمس ، وهو في كل ماكتبه قدم صورة قوية للايحاء والتعبير عن عمق واوجه مأساة شعبه في فلسطين وتلك الغربة التي كان يعيشها مرغما" برغم كل هذا الفيض من الحب الذي غمره بها اهل بغداد .
وبعد كل هذا الذي قدمه اديبنا من جهد خلاق طويت صفحته الناصعة البياض بوفاته عام ١٩٩٤ وكانت صورته الاخيرة التي ظلت عالقة في ذهني هي في لقائه باحد مصارف بغداد متهيئا" لتسلم راتبه التقاعدي فمددت اليه يدي مصافحا" ولم اكن اعلم ان ذلك اللقاء سيكون اخر عهدي به وكما جاء حاملا" حقيبة سفره الى منافي الغربة هاهو يتوشح بساطه السحري ليسيح في عالم اللاوعي ، عالم اردنا فيه ان نبحث عن تغريبته الاخيرة فلم نعثر الا على شجرة زيتون كان قد زرعها قرب بيته ولاندري هل سألت عنه ؟ تلك هي المسألة !!

كانت لديه القوة ليكون منفتحا على العالم عبر ايمانه بثقافته الخاصة.
وبعد موته حدثت الكثير من الحروب والاحتلالات لكن فكرته العلمانية عن الهوية ذبلت بقوة حتى قبل صعود القوى الدينية والطائفية. وفي صراع غير متكافئ وبشكل هزلي تقريبا، تواجه الغرب العدواني مع الشرق الهائج.
ويقول الاستاذ الن مكررا مايقوله الاخرون «نحن في عصر اعتادت الثقافات اساءة فهم الثقافات الاخرى وعن عمد. ان شخصا مثل جبرا قد لايحتمله احد».
اما صديقه عيسى بلاطه فيقول ان المأساة كانت بعد الذي جرى «فالبيت لم يدمر فقط بل تم نسيانه».
لكنه لايتفق مع فكرة ان البيت غدا اطلالا من عصر غابر ويقول «انها فكرة متشائمة ولم يكن جبرا متشائما» ويوافقه السامرائي على قوله. وفي لحظة فكر بصورة صحيحة وتساءل ان كان يمكن تصميم متحف بطريقة ما من الانقاض؟ ولابد من ادراك ماهي القضية الاهم، اهي تخليد مثاليته وتغذية الشجرة نفسها التي كان جبرا يشير اليها؟
وفي النهاية قال «لقد ظلت الذكريات حجر الزاوية، وانا قد ابدو رومانسيا جدا حين اناقش الامر». ويضيف مبتسما «لكن الحقيقي، ان نصف قرن من الثقافة قد تكون ضاعت في ذلك البيت. لكنها لاتزال حية معنا وروحه لازالت معنا».

عن نيويورك تايمز

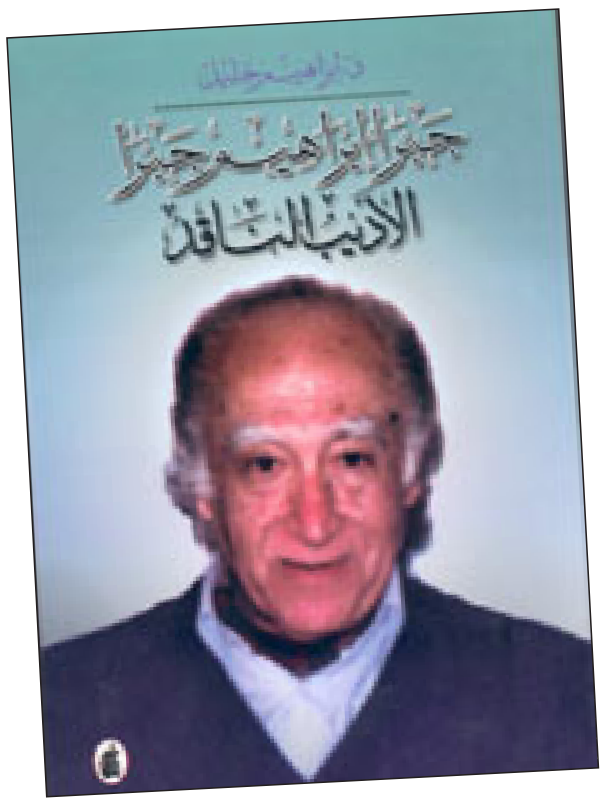

عد موته حدثت الكثير من الحروب والاحتلالات لكن فكرته العلمانية عن الهوية ذبلت بقوة حتى قبل صعود القوى الدينية والطائفية. وفي صراع غير متكافئ وبشكل هزلي تقريبا، تواجه الغرب العدواني مع الشرق الهائج.
ويقول الاستاذ الن مكررا مايقوله الاخرون «نحن في عصر اعتادت الثقافات اساءة فهم الثقافات الاخرى وعن عمد. ان شخصا مثل جبرا قد لايحتمله احد».

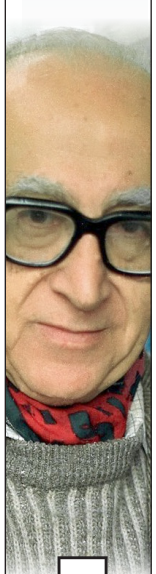

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

جبرا ابراهيم جبرا رساماً

د.خالد السلطاني

... امتلك في ارشيفي الخاص مجموعة صور لاربع لوحات مرسومة من قبل " جبرا ابراهيم جبرا " ، تعود الى فترة الخمسينيات وتحديدا الى 1951- 1957 . لا اعرف بالتحديد مصير هذه اللوحات ، واين الان مستقرها ؛ وازعم بان الكثيرين من محبي نتاج " جبرا " لا يعرفوا عنها الكثير ، كما انها لم تظهر في غالبية المطبوعات التى تناولت ارث " جبرا " الفني .

لايشك احد بان انجازات العقد الخمسيني في الثقافة العراقية كانت انجازات مهمة ومتشعبة وتجديديةً ، وربما ساهمت انجازات ذلك العقد " البطولي " : الفريد وشديد الثراء في خلق مبدعيه المعبرين عن منجزه المتشعب والمتنوع بصدق وجلاء واضحين ؛ وقد يكون حدث " مصادفة " تواجد العدد الكبير من المبدعين ابان تلك الفترة ، هو الذي اكسب تلك المرحلة الزمنية من تاريخ العراق الثقافي تلك الاهمية الفائقة ؛ الاهمية التى ما برحت تأثيراتها تبدو واضحة وقوية على مسار تطوّر مجمل الاجناس الابداعية العراقية . وايا ً يكن الامر ، فان العقد الخمسيني سيظل يمثل اهمية استثنائية في سجل المعطى الثقافي العراقي ، نظرا لتشعب ذلك المعطى وشموليته ونَفَسَه التجديدي ، .. وأحد الذين عبروا وساهموا وابدعوا في تلك الفترة هو " جبرا ابراهيم جبرا " (١٩٢٠- ١٩٩٤) – " الكاتب الشمولي الموسوعي " ، بحسب وصف " فخري صالح " له ، والذي تحل ذكرى رحيله الحادية عشرة في هذه الايام .

يتعين التأكيد بادئ ذي بدء ، بان جبرا ابراهيم جبرا ، وبحكم مرجعياته الثقافية الرصينة والمتنورة قد وعى بصورة جيدة اهمية الاحداث الدراماتيكية والتجديدية التى كان يمور بها المشهد الثقافي العراقي وقتذاك ، تلك الاحداث التى افضت في النتيجة الى تكريس مفاهيم جديدة وحداثية في مجالات ثقافية عديدة ساهمت ، بالاخير، في تغيير الذائقة الفنية وبدلت من اساليب التعاطي للمنجز الثقافي بتجلياته المتنوعة . كما ان ذلك الوعي اقترن ايضا لدى " جبرا " بممارسة نشطة وجادة ومتنوعة في مجمل المنجز الثقافي العراقي ، فهو اضافة الى كونه روائيا وناقدا فنيا ، ومترجما وصحفيا ، فانه ايضا .. رسام ، ساهم بابداعه الفني في ترسيخ مبادئ التجديد والحداثة في الفن العراقي ، جنبا الى جنب اصدقائه وزملائه في " جماعة بغداد للفن الحديث " .

قد يجادل المرء في اساليب ونوعية اصطفاءات " جبرا " الثقافية ، ومسعاه في تركيز الانتباه باتجاه جانب محدد ومنتقى من الثقافة العراقية ، ولا سيما في تجلياتها الفنية ، وعدم اكتراثه وحتى تغاضيه عن تناول الجوانب الابداعية الاخرى من تنوعيات الفن العراقي التى اكسبت ذلك الفن ثراء اسلوبيا واسست لاصالته المتميزّة . بيد ان الامر الاكيد بان مسعى " جبرا " التنويري والتجديدي كان امرا واضحا ومعترفا به . فقد ظل ، بفضل معرفته الواسعة لاساليب النقد الحديث وتنوع نشاطه الثقافي مرجعاً رصيناً ومعتمدا ً لانجازات الفن العراقي الحديث وخصوصا في سنينه التأسيسة ، ولم تقتصر متابعته في الشأن الفني فقط ، وانما شملت جميع اجناس الثقافة الاخرى ، بضمنها العمارة العراقية الحديثة ، التى كان " جبرا " احد المعجبين والمتابعين والمروجيّن لانجازاتها على مدى اكثر من اربعة عقود ، وهي الفترة التى وصل بها الى العراق أول مرة عام ١٩٤٨ ، قادما من بلده فلسطين ، ولحين وفاته عام ١٩٩٤ . واعد شخصيا روايته " صيادون في شارع ضيق ") التى ظهرت ترجمتها الى العربية سنة ١٩٧٤) بمثابة ايماءة اعجاب الى بيئة بغداد المبنية ومناخها " المتروبوليتاني " من خلال الحضور المميّز لشارعها المهم في الرواية : شارع الرشيد – الجادة الاكثر شهرة وفخامة في فضاء العاصمة العراقية . كما اذكر زيارتي له بالتسعينيات في دارته بالمنصور في شارع الاميرات ، الشارع الذي خلده بكتابه "شارع الاميرات " الصادر عام (١٩٩٤) ، للاستفسار منه عن نشاط المصور الفوتوغرافي " جاك برسفيل Jack Persival " ، الذي عمل معه في مجلة " اهل النفط " في الخمسينيات ، والذي سجل بعدسته الرائعة منجز العمارة العراقية الحديثة بشكل خاص ، والبيئة المبنية والاجتماعية العراقية بشكل عام ؛ وقدمّ لي ، في حينها ، جميع المعلومات التى اكتنفت حياة ونشاط هذا الفنان الانكليزي ، الذي يعود له الفضل في تأسيس فن " الفوتوغراف " العراقي الحديث .

... امتلك في ارشيفي الخاص مجموعة صور لاربع لوحات مرسومة من قبل " جبرا ابراهيم جبرا " ، تعود الى فترة الخمسينيات وتحديدا الى ١٩٥١- ١٩٥٧ . لا اعرف بالتحديد مصير هذه اللوحات ، واين الان مستقرها ؛ وازعم بان الكثيرين من محبي نتاج " جبرا " لا يعرفوا عنها الكثير ، كما انها لم تظهر في غالبية المطبوعات التى تناولت ارث " جبرا " الفني . اقدم هذه اللوحات الى القارئ ، داعيا النقاد المختصين لابداء الرأي فيها ، محاولا هنا ، ابداء تعليقات شخصية وسريعة عنها .

تنتمي جميع اللوحات الاربع الى خصوصية " المناخ " الطليعي والتجديدي الذي كان سائدا في الخطاب الفني العراقي بالخمسينيات ، المناخ المتّطلع نحو المقاربات الفنية الحداثية ، والتائق الى مجاراتها وتبني اساليبها الفنية بذائقة محلية متشكلة من اجتهادات ذاتية لتفسير تلك المقاربات ومحاولات محض شخصية لفهمها .

ولئن كان اكثر الفنانين العراقين المجايلين له في تلك الفترة ، سعوا وراء ترسيخ " ثيمات " الحياة اليومية ، لابطال " قرويين (!!) يمارسون فعالياتهم في المشهد المديني ، كلوحة فائق حسن " في المطعم " و " الشجرة " لجواد سليم ، و " الرحيل " لاسماعيل الشيخلي ، ومنحوتة " الشرقاوية في ليلة الدخلة " لخالد الرحال ، و " الملايّات " لمحمود صبري و " سوق في كربلاء " لحميد العطار و " جاء الرزق " لارداش كاكافيان ، و " سوق الدهانة " لحميد العطار ، و " ام اللبن " للورنا سليم ، و " البناؤون " لكاظم حيدر ،و " الفارس وحصانه " لزيد محمد صالح ، و " الكوفة " لطارق مظلوم ، و " سوق الميدان " لرسول علوان وغيرهم من الفنانين الذين اشتغلوا كثيرا على تكريس موضوعة " النقيضة " المتمثلة بحضور القروي في المشهد الحضري ؛ فان " جبرا " الرسام الذي لم يك بعد " هاضما " بشكل جيد مغزى ذلك الصراع الاجتماعي الذي طبع المجتمع العراقي بطابع خاص ومميزّ ، انتقى " ثيمة " مخالفة تماما لموضوعة اقرانه ، وهي " ثيمة " – كناية ، كما ارى ، في تشبث الرسام في " اميج " الانتماءات الحميمية ؛ التى احسّ ، برهافة الفنان ، بانها معرضة للتلاشي سريعا من الذاكرة ، اثر النكبة التى حلت ببلده مؤخرا وقتذاك ! .

في لوحات " العائلة – ١٩٥٥ " ، و " امرأة وطفلها – ١٩٥٧ " و " النافذة " (١٩٥١) ، يحرص " جبرا " الى جعل موضوعة لوحاته بمثابة مادة قابلة لاستيلاد افكار واستدعاء ذكريات متنوعة ، يمارسها المتلقي الناظر الى شخوص اللوحة والناظرة هي اليه . ومما يسهم في تعزيز هذا الشعور اختيار الفنان للاسلوب التعبيري < بمدرسته الالمانية > ، الاسلوب المثقل بفيض الاحاسيس والمترع بالترميز ! . في لوحة " النافذة " ثمة وجه بورتريتي لامرأة نصفها الايمن يدلل على مرحلة شبابها والنصف الاخر وهي في خريف العمر ، انها تتمعن بالمشاهد بعين مفتوحة وكبيرة في نصفها الايمن ، وبعين متعبة وصغيرة في نصفها الايسر، لكن نظراتها ما فتئت تحمل سمات جمال غابر يؤكد حقيقته النصف الاخر من اللوحة . ثمة نافذة مفتوحة بدون اطارات (او بالاحرى حفرة معمولة بالجدار) تطل على فضاء مغلق ، يغمر شعاعها النصف المسن من الوجه الانثوي المحاط بحيّز نصفه معتم والاخر مضئ ، يتحدد فضاءه بقسوة من خلال خطوط المنظور الحادة التى تتلاشى نهاياتها في عتمة خلفية اللوحة .

لا يبدو " جبرا " الرسام ، قادرا على النأي بعيدا عن تأثيرات مجايليه حتى النهاية ؛ ففي لوحة " الصفّار – ١٩٥٥ " ، نشعر بنزوع الفنان نحو السعي الى تناغم " ثيموي " مع موضوعة فناني البيئة البغدادية اليومية ، الموضوعة العزيزة على قلب الفنان العراقي الخمسيني. اذ تمثل اللوحة دكانا لبيع ادوات منزلية مصنوعة من النحاس / الصفر . تمور اللوحة بكثافة عارمة من اقواس لخطوط منحنية ، ترسم تقاطعاتها اشكال تلك الادوات المنزلية البسيطة من اوانٍ وقدور و " تنك " لحفظ المياه ، مرصوفة على شكل خطوط شاقولية متوازية تقسم سطح اللوحة الى تقسيمات عمودية متوازية في جزئها الوسطي ، وتنتهي ، كما بدأت بخطوط افقية في اعلاها وفي اسفلها .

وتلوح هيئة الشخص البائع الجالس بين تلك الاواني ، وكأنها جزء من خضم الاشكال المنحية الحافلة بها اللوحة ؛ انها تعبير عن ما يريد الرسام ايصاله لنا عن تماه شديد وتآلف حميمي بين " الصانع " و" المصنوع " ! .

قد تمنح اللوحات المشار اليها في هذا المقال مع بقية نظيراتها التى انجزها " جبرا ابراهيم جبرا " ، صورة واضحة عن ثراء وغنى المنجز الثقافي " للكاتب الشمولي الموسوعي " . وليس المهم ، في اعتقادي ، هنا البحث عن مهارة تكوين اللوحات المرسومة وحذاقة الخطوط فيها ، بقدر ما تفصح تلك اللوحات الفنية مقدار عمق واتساع شخصية المثقف " الرسولي " واهتماماته الجمالية ، وتبين في الوقت ذاته ، فداحة الخسارة التى فقدتها الثقافة العربية .. بوفاته .

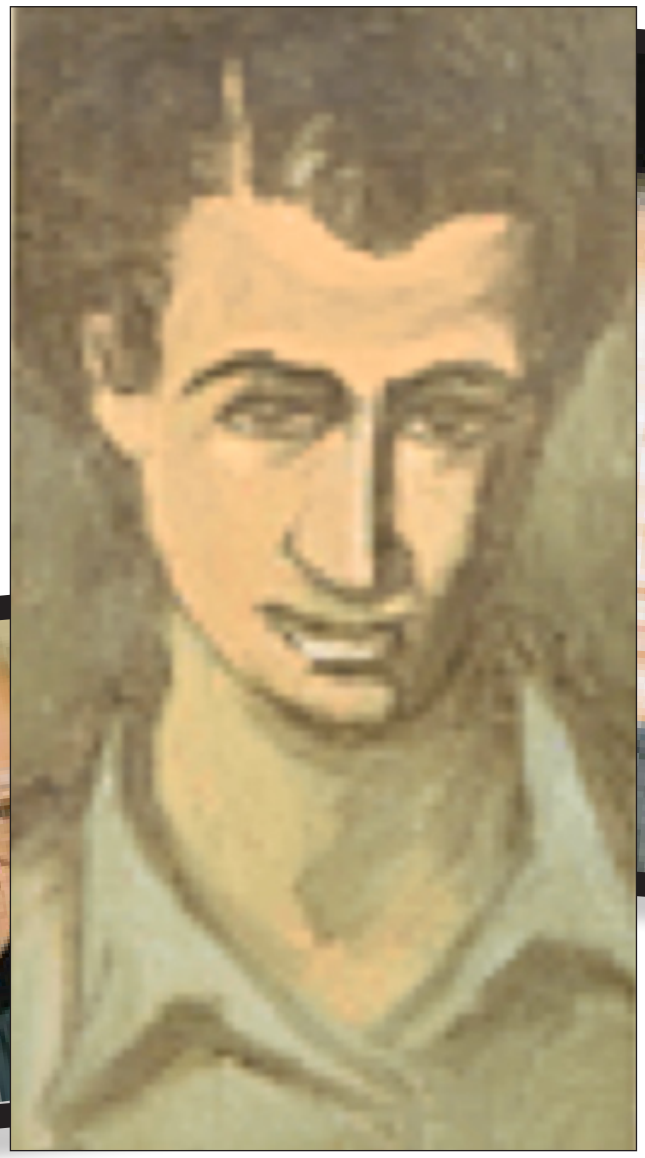

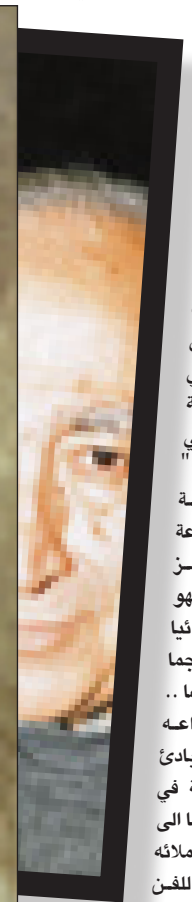

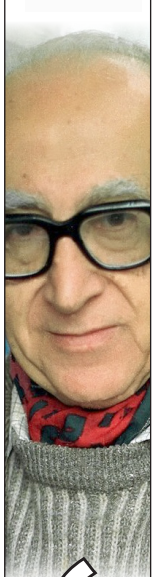

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

في بيت جبرا

حاتم الصكر

حين تزور جبرا في بيته ، تحس بكينونته التذكارية ايضا.

وهذا ما عبر عنه اصدقائي العرب من زوار بغداد، حين كنت اصحبهم لزيارة جبرا في بيته . كنت امازحه بالقول : لقد غدا بيتك معلما يزوره السياح ! كآثار بغداد واماكنها التاريخية وكنت اعني ما اقول فمنذ ان يفتح لك جبرا الباب الداخلي للبيت ، وتسير في ممر ضيق يؤدى الى صالة واسعة مفتوحة على غرفة أخرى الى اليسار حتى تحس انك في متحف .

اللوحات الزيتية والمنحوتات جزء من ذاكرة الرسمين العراقي والعربي.

لوحات رسمها افضل فناني قرننا جواد سليم وشاكر حسن آل سعيد وفائق حسن وحافظ الدروبي وعطا صبري ومنحوتات وتماثيل لمحمد غني وخالد الجادر واسماعيل فتاح وخالد الرحال .

ثم على يمينك حيث سرت رفوف الكتب كلها اهداءات بخطوط اصحابها: السياب والبياتي واحسان عباس وسهيل ادريس... وصور لابرز اصدقائه "ومعهم "كعبدالرحمن منيف والخال والصايغ ... والأهم من ذلك اعمال جبرا نفسه . فثمة رسوم في فترات مختلفة ورفوف خاصة بمؤلفاته كان يمازحنا بالقول انها وحدها تحتاج الى مكتبة خاصة وليس في الامر مبالغة فلقد تعددت اهتمامات جبرا، فكان مثقفا موسوعيا يفتقد عصرنا الى امثاله ...

فهو يرسم ويكتب عن الرسم

– وهو شاعر... وقاص .. وروائي... وكاتب سيناريو وهو مترجم ودارس وناقد يكتب بالانجليزية الى جانب لغته الام .

وهو يكتب عن الثقافة والشعر والأدب والحضارة والفلسفة ...

واذ يعمل تجد له اسما في التعليم والصحافة الثقافية ... وفي المنظمات والاتحادات الثقافية ... مؤسسا وعاملا: في اتحاد الادباء والكتاب ، ورابطة نقاد الادب ، ورابطة نقاد الفن العالمية.

–ومسهم نشيط في موجات الحداثة : واكب حركة الريادة في الشعر الحر في سنواتها الأولى –وفي حركة الحداثة الثانية التي بدأت بصدور مجلة "الشعر" التي كان جبرا من ابرز اركانها.

– وكان فاعلا في الحياة الثقافية : تجده في الندوات والحلقات الدراسية وفي معارض الرسم وعروض المسرح وامسيات الشعر والنقد... في لجان التحكيم... والهيئات الاستثمارية .. والمشروعات الثقافية الكبرى... لقد كان جبرا فريقا من الكتاب في رجل واحد، و لم يكن ليمنعه اي شئ عن الوفاء بالتزام او المساهمة في نشاط..

لذا نقول انه مثقف شامل ، ليس لانه جمع اجناسا ادبية وفنية عدة في شخصه بل لانا حاول من خلال ذلك ان يكون له "موقف" في عصر تهمش فيه المثقف ، وتراجع دور الكتاب والادباء.

لكن العجيب في حالة جبرا ابراهيم جبرا انه حافظ بموازنة دقيقة بين حضوره الثقافي ورعايته للحداثة والابداع ، وبين جماهيرية كتابته فهو مقروء بشكل واسع من قبل اوساط القراء والمهتمين من اجيال واعمار وبيئات وثقافات متباينة ، ولا يحظى – إلا قليل من الكتاب بمثل المتابعة والقراءة التي تحظى بها كتبه...

×××

لقد كان ذا دور تأسيسي دائما :

حين جاء الى بغداد بعد تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨ لم يكن وجوده طارئا بل سرعان ما اشاع حوله جوا ثقافيا مؤثرا تبلور عبر صلته بالادباء والفنانين والشعراء لاسيما بدر شاكر السياب الذي تشهد مراسلاته معه، على اهمية ما قدمه له من مساعدة، سواء في القراءة او النشر.

وكذلك صلته بجواد سليم الذي اسس معه .. وعدد من الرسامين... " جماعة بغداد للفن الحديث " عام ١٩٥١.

وحين اختار العراق وطنا ومستقرا بعد النكبة ، فانه كان متفاعلا ومشعا باتجاه الثقافة العربية .

وهذا واضح في دوره التأسيسي لجماعة مجلة (شعر) رغم اختلافه مع طراز القصيدة النثرية التي كتبها ادونيس وانسي الحاج وابو شقرا وسواهم.. فقد كان جبرا يعد –نفسه وبعض الشعراء التموزيين كما يسميهم – من شعراء «الشعر الحر" بمفهومه الانكلوسكسوني وهو الشعر المتحرر من الوزن والقافية ، ولكن القائم على الترابط المنطقي والدلالي بين جمله وابياته .. كان "تموز في المدينة "هو اول دواوينه ١٩٥٩ و(لوعة الشمس) ١٩٧٩ هو أخرها ولم يتغير منظوره الشعري خلال ذلك.

فيما كانت رواياته تعمق نهجه الاستبطاني فهو يدرس شخصياته بدقة ويعريها دون رحمة ويقدمها دون تجميل او تصنع هكذا فعل في " صراخ في ليل طويل " أولى رواياته ١٩٥٥ وفي اشهر رواياته من بعد: صيادون في شارع ضيق /السفينة / البحث عن وليد مسعود الغرف الاخرى / يوميات سراب عفان ...

لقد قدم جبرا بشرا وامكنة واحداثا لايمكن ان تخطئهم الذاكرة ولايهملهم تاريخ القراءة ، فأخذ مكانته اللائقة في سجل الريادة الفنية والاتجاهات الجمالية الجديدة في كتابة الرواية العربية الحديثة .

وفي نقده ، لم يكن جبرا، لينطق من منهج نقدي مسمى، رغم دراسته الاكاديمية المعمقة . ومعرفته بالادب الاجنبي وتياراته ... انه يحتكم الى حسه الفني والجمال ، تفرده خطي الحداثة التي يرى فيها مستقبل الادب العربي وانسان هذا الوطن .

هكذا كتب (الحمرية والطوفان) ١٩٦٠. و(الرحلة الثامنة) ١٩٦٠، و(النار والجوهر) و(ينابيع الرؤيا) و(الفن والحلم والفعل) وغيرها..

×××

– لقد عاش جبرا حياة ثقافية حافلة لم تكن له سواها حياة .. هكذا تجده يكتب في الفن التشكيلي «الفن العراقي المعاصر» و"جذور الفن العراقي " و"جواد سليم ونصب الحرية " .

– وفي الترجمة لا يتعامل مع ما ينقل الى العربية إلا عبر اعجاب ودراسة معمقة، فهو يهتم اصلا بشكسبير والدراسات الشكسبيرية فترجم عددا كبيرا من السونيتات ، وسبع مسرحيات مهمة لشكسبير، ونقل من المكتبة النقدية عن شكسبير عدة كتب مهمة– منها "شكسبير معاصرنا" و" ما الذى يحدث في هاملت " و"شكسبير والأنسان المستوحد"... وله اجتهادات واضحة قي تفسير شخصيات مسرحياته ..

– واختار جانبا أخر يكمل اهتماماته الفنية والأدبية ذلك هو التاريخ الفني والحضاري فترجم جزءا مهما من الغصن الذهبي لفريزر عن " ادونيس أو تموز" و" أفاق الفن " لالكسندر اليوت (وقد صرح لى شخصيا بعد ان ابلغته إعجابي بلغة الكاتب الشعرية وهو يتجول في مدينة الفن ، بأنه يحب هذا الكتاب كثيرا للسبب نفسه) كما ترجم دراسات عدة "برج بابل" و" الاسطورة والرمز" وفي العمارة والفن الحديث . . ولايمكن ان ننسى ترجمته لـ " الصخب والعنف " لفولكز التي كانت تحديدا لصعوبة هذا العمل وتعقيد اسلوبه . . وغالبا ما كان يقرن ترجماته بمقدمات مهمة ذات قيمة وثائقية كمقدمته لكتاب مترجم عن الشاعر ديلان توماس حكى جبرا فيها عن معرفته ومعاصرته لتوماس ايام دراسته .

– لقد كان حقا كما قال له السياب في احدى رسائله " اوسع نشاطا من ان تحده الترجمة عن كتابة الشعر او القصة او النقد".

×××

لقد رحل جبرا عن اربعة وسبعين عاما "ولد في بيت لحم بفلسطين عام ١٩٣٠ " وترك ما يربو على الأربعة والستين كتابا، يقول جبرا في أخر مقابلة موسعة اجراها معه الزميل ماجد السامرائي لمناسبة محور خاص عن جبرا في مجلة "الجديد في عالم الكتب"

"لعلنى دون ان ادري منذ اول ما انطلقت في الكتابة، كنت مهما كتبت ، انما اشرح واعلق على تلك القصة الرمزية التى هى حياتى" .

كما يتحدث عن " الحداثة " التى اوقف جهده فى حقلها،ومن اجلها فيقول " الحداثة العربية التى نشدتها، وعشت بها، لم تكن يوما هدفا لمسعى، تبلغه فتستريح ، الحداثة تطلع مستمر، وأهميته فى استمراره الذى لا ينتهى إلا حين يطبق الظلام على الكون وا لانسان ".

وعن منهجه النقدى يقول فى مذكراته " اقنعة الحقيقة، وأقنعة الخيال ". " النقد عندي عملية استغوار وكشف وأنا بالطبع لا استطيع استغوار ما لاغور له ، كما لا يهمني ان اكشف ارضا يطرقها كل غاد ورائح . . " ولكن ابدأ بالاستغوار والكشف، يجب على بعد الاطلاع الاول السريع على الارض التى انا عليها ان اعود فأمسحها من جديد بدقة، لاننى افترض ان الشكل الفنى قائم عل هيكل محجوب له هندسته وتعقيده وكوامنه التى تنطلق منها دينامية الشكل...

والناقد – كما اراه يجب ان يتناول العمل الفني كشيء بحد ذاته ، له كيانه الخاص المحدود اى انه يجب ألا يخلط بينه وبين صاحبه. النقد يجب ان يعالج النص نفسه، ويستخرج الكوامن من النص، لا من اى مصدر أخر". ويقول عن عالم رواياته

"عالمى هو المدينة، المدينة العربية الجديدة، بكل ما فيها من متناقضات وتيارات وأمال ومخاوف المدينة اليوم ليست مجرد "قصبة" فيها دار للحكومة: المدينة بوتقة هائلة لم تنصهر فيها العناصر انصهارا تاما بعد.. المدينة مازالت تسحرني وتستحثنى على الكتابة وتصوير الشخصيات الناهشة المنهوشة فيها كما تسحر البدوى القادم اليها من الصحراء اول مرة ولكنى قد ابكي عليها، كما بكى المسيح على القدس، لاننى اريد لها الخصب والصحة لا الجدب والمرض".

ويكتب رسالة الى شاعر ناشيء فيقول له فيها مذكرا بقول الشاعر "شلى" بأن الشعراء كهنة الوحى الذى لايدرك ومرايا الظلال الهائلة التى يلقيها المستقبل على الحاضر – وانهم مشرعو العالم غير المعترف بهم يقول جبرا " لا لن تكون شاعرا إلا اذا صدرت الفاظك من اعماق جسدك وكتبت عما احست به يداك ، وذاقته شفتاك ، ورأته عيناك .

عليك ان تستقى الالفاظ من عضلاتك من انسجة لحمك ، من احشائك ، وتنسى عشرات العبارات التقليدية التى حشوت بها حافظتك ، لانها قد عفنت وأنظر الى الحياة من جديد انك فى عالم غير عالم الامس ، اولا ينبغى ان تتجدد اللغة بتجدد الحياة " .

وفى دراسة مهمة لجبرا عن شخصية "هاملت" بين العبث وضرورة الفعل يخلص الى ان "هاملت الغامض المعقد المكنون، العديد النواحى، المدرك العبث، اذ يدنو من قضائه المحتوم يكشف لنا رويدا رويدا عن اتساع زاخر فى النفس ومغلقات من الحياة التى تحيط بنا.

واذا ما شارف النهاية، تفجر فى قلوبنا فيض الحب دمعا لهذا الذى يبدو كأنما راح فداء لنا وكأنه قد احبنا كما احب اوفيليا وكما احب صديقه هوراشيو" .

كذلك كان جبرا... واحساسنا وهو ينزلق الى هوة العدم بجسده.. بينما يظل لكلماته حضورها الرائع البهى.

مجلة نزوى العدد الثاني ١٩٩٤

لقد رحل جبرا عن اربعة وسبعين عاما "ولد في بيت لحم بفلسطين عام ١٩٣٠ " وترك ما يربو على الأربعة والستين كتابا، يقول جبرا في أخر مقابلة موسعة اجراها معه الزميل ماجد السامرائي لمناسبة محور خاص عن جبرا في مجلة "الجديد في عالم الكتب"

"لعلنى دون ان ادري منذ اول ما انطلقت في الكتابة، كنت مهما كتبت ، انما اشرح واعلق على تلك القصة الرمزية التى هى حياتى" .

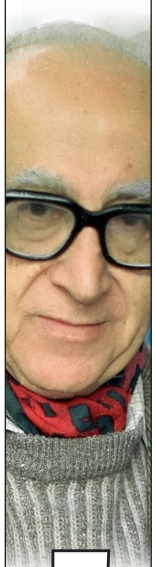

مكتبة جبرا

علي حسين

يحدثنا جبرا عن علاقته بالبيت في كل لمحة من كتابه شارع الاميرات :

(اخترت عام ١٩٥٦ ان اشتري ارضا لكي ابني فيها بيتا على قدر حاجتي العائلية.. لأسباب مادية صرفة لم استطع اكمال بناء دارنا الاّ بعد مرور ست سنوات .. كان الشارع مرصوفا رصفا بدائيا وتنتشر فيه الصرائف وتسرح فيه الأبقار والأغنام ..لكني وجدت فيما بعد ان بيوتا متباعدة اخذت تنهض على جانبيه بسرعة واشجار النخيل المتساوقة في خطين طويلين قد نمت واكتملت على حافتي الرصيف العريضتين...

لقد رسم المعمار قحطان عوني اول تخطيط لداري .. ثم قدم لي الصديق رفعت الجادرجي تخطيطا آخر لكني آثرت في النهاية ان استفيد من التخطيطين ليكون منزلا لي ولزوجتي لميعه ولطفلي الصغيرين على قدر طاقتي المادية) ..

كثيرا ما يفاجا جبرا بسؤال زواربيته وهم ينظرون الى المكتبة التي انتشرت على الحيطان لتأخذ حيزا كبيرا من البيت : هل قرأت كل هذه الكتب؟، وستكون اجابته التي تعود ان يقولهاوهو يبتسم ، لقد اطلعت عليها كلها .. لم يكن الكتاب بالنسبة لجبرا سوى ضرب من العشق وهو يحفظ مقولة فرنسيس بيكون الشهيرة (بعض الكتب وجد لكيما يذاق ، وبعضها لكيما يبتلع ، والبعض القليل لكيما يمضغ ويهضم)

يتذكر جبرا ماقراه عن دي أي لورنس من ان الاخير دخل مكتبة اكسفورد وكانت تحوي مائة الف كتاب وفي ثلاث سنوات من الدراسة تعرف عليها جميعا هذا التعرف بمفهوم جبرا هو اساس الكثير من المعرفة وهو الذي يدل القاريء الى الاتجاه الذي عليه ان يسير فيه لطلب المزيد من المعرفة .. لنا ان نتذوق الكتاب اونبتلع بعضه او نمضغه ونهضمه ببطء في كل الاحوال نحن نعيش حالة عشق لاتملها النفس يكتب جبرا في مقال بعنوان عشق من نوع اخر يقول :كانت تراودني فكرة اشبه بالحلم فكرت في كتابتها منذ اكثر من اربعين سنة ، وهي عن رجل كان يعشق الكتب اشترى بقعة نائية على كتف عال لتلة صخرية مشرفة على واد كثير التعاريج والشعاب ، وبنى عليها فندقا جميلا يجتذب الناس اولئك الذين يريدون الاختلاء بالطبيعة البعيدة عن ضوضاء المدن طلبا للتعمق في ذواتهم ، مقابل اجور معقولة وكان ذلك جزءا من خطة وضعها لنفسه . فهو ينفق معظم ربحه في كتب يشتريها بالمئات . وفي بضع سنوات تجمع لديه من المال مايكفيه اخيرا لان يحول الفندق الى صوامع ، رتب فيها الكتب على رفوف لاتنتهي وجعلها دارا مفتوحة لكل من يريد ان يقرأ ويكتب ، شريطة ان ينتهي مايكتب الى مؤلف يزيد من حس الانسان بروعة الوجود .

لم يكتب جبرا قصته تلك فقد كان يدرك انذاك وهو في اواسط العشرينيات من عمرة انها غير معقولة واشبه بالحلم .. لكن الحلم زامله سنوات طويله حتى استطاع في منتصف الستينيات من القرن الماضي ان يحققه ولو بشكل بسيط ، فالدار التي حلم بها اكتملت ولم يبقى غير المكتبة وهي في نظره الجزء الاهم في هذا البيت .. فجبرا الانسان عاش طفولة ضنكة ونشأ في بيت ليس فيه الابضعة كتب حسب ما جاء بشهادته ، والادخار انذاك كان صعبا ، فلما سنحت له الفرصة ان يدخل الجامعه في انكلترا كان اول شيء عمله وهو المبتلي بعشق الكتب ان سعى الى شراء الكتب بالجملة ، بالعشرات كما كان يحلم بطل قصته الخيالية وماهي الاسنوات على الدراسة حتى وجد نفسه محاطا بالكتب من كل مكان ، وهو يتذكر في سني دراسته مصاطب الكتب في مدينة كمبردج وقد تزاحمت عليها كتب نادرة ونفيسة تباع جميعها باسعار زهيدة ، يقف جبرا متاملا هذه المصاطب المليئة بالكتب يقلب هذا ويقتني ذاك وهو اشبه بسارق المعرفة على حد تعبير الناقد الانكليزي وليم هازلت ، سراق المعرفة الذين يطيلون الوقوف امام اكوام الكتب ليقرأوا بمتعة وتلذذ ، حيث يؤكد هازلت ان (سرقة المعرفة هي السرقة المشروعة الوحيدة في حياة المجتمع) وكان جبرا باعترافه واحدا من هؤلاء السراق حين تختفي النقود من جيبه فلا يجد بديلا من ان يقف ساعات ليقرأ بمتعة وتلذذ فقره هنا او فقرة هنك .

وفي بغداد مدينته التي عشقها وكتب عنها اجمل الاشعار والروايات وجد في سوق السراي ضالته فمصاطب الكتب نفسها التي في انكلترا اوباريس والجيب عامر بالنقود بعد ان وجد وظيفة حيث عمل مدرسا في دار المعلمين العالية.

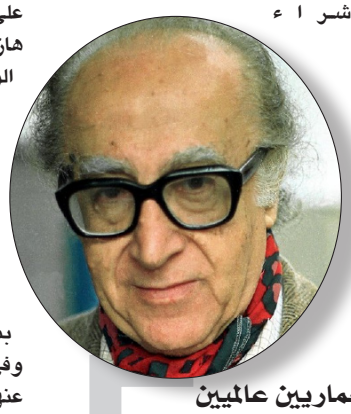

كانت بغداد الخمسينيات والأعمار المأمول يومها ..تموج بمعماريين عالميين ومصممين ومخططين حضريين هم رواد الباوهاوس ومنعرجات مدرسة الحداثة القادمة معهم ..وكان ثمة شباب جدد يغامرون في طرح افكارهم وتصاميمهم لبلاد تضم مدنا وشوارع وكيانات معمارية مثل حلم مستحيل وممكنا يضا ..

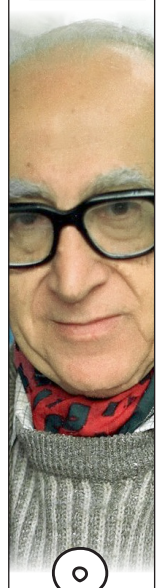

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

×××

الزمان منتصف خمسينيات القرن الماضي ، جبرا يخطو بثقة في شوارع بغداد التي الفها والفته ، يدخل مكتبه مكنزي يبحث في رفوفها عن اخر ما انتجته المطابع في العالم ، ثم يسير باتجاه (كورنيت) الواقع انذاك في شارع السعدون والذي تخصص في استيراد المجلات الاجنبية ، يجلس في مقهى البرازيلية في ذلك الزمان سيعتني جبرا برفقةمجموعة من المعماريين والفنانين التشكيليين والشعراء ليشكلوا نواة فكر وحداثة وجدل جديد في العراق . كان مريدوه مجموعة من انبه مثقفي العراق السياب ، حسين مردان ،جواد سليم ، فائق حسن ، بلند الحيدري ، لينضم اليهم فيما بعد نجيب المانع والشقيقان نهاد وفؤاد التكرلي وعبد الملك نوري ، هؤلاء المريديون وجدوا فيه مثقفا شديد الاعتزاز بثقافته ، شد الشبه بنجوم السينما انذاك نافر ومتمرد وعنيد ورقيق واسر وكريم وعاشق.. حديثه ياخذ شكل الاحكام.. كلماته بمثابة سطور الحكمة في قصيدة شاعر لكنها على الرغم من اتخاذها شكل الاحكام فان الاستاذ جبرا ينأى بها عن الاطلاق وهو دائم الدخول والاشتباك في ساحات الحوار مع الجميع بصبر وداب ورقة وحزم .. ولعل الطاقة الخلاقة في داخله، ، لم تترك له مجالا للإقامة طويلا داخل بيته، أو داخل جسده، إذ وبصورة غير عادية دفعته لان يتخذ من بغداد عشقه الجديد يعايشها بكل تفاصيل حياتها اليومية ، ولعل انخراطه السريع في الحياة الثقافية في بغداد في ذلك الوقت أمر يثير الاعجاب والدهشة معا، ويجعلنا نتساءل فعلا عن سر ذلك التوق العظيم للتغيير؛ واليوم ونحن على مسافة نصف قرن وأكثر من ذلك التاريخ، حين نتأمل سيرة جبرا، نلاحظ أن كل لحظة من لحظات حياته، كما قرأناها في كتبه، وكما عايشناها، كانت لحظة عشق واندفاع من اجل تجميل هذه المدينة (بغداد) باجمل الكلمات واللوحات عبر قصائد وروايات ارخت لمرحلة مهمة في تاريخنا الثقافي.

يقول الفنان الراحل شاكر حسن آل سعيد في كتاب (القلق وتمجيد الحياة ١٩٩٥): (وأصبحنا نحن الشباب الخمسيني المثقف وقتئذ نجدفي جبرا ابراهيم جبرا مصدرا من مصادر الإشعاع الثقافي الذي لم يألفه المثقفون من ذي قبل، وقد عرفنا أيضا أنه كان من خلال ثقافته العميقة الجذور/ وفكره النير. يرسم صورة مثالية عليا لطلابه أيضا.)

لقد التمَّ المبدعون ممن كانت مواهبهم في انتظار المعجزة حوله مثلما تفعل الفراشات، فكان أن وجدت نوايا التجديد في الشعر والرسم من يقودها في الاتجاه الصحيح .. ومثلما شهدت له الخمسينيات أنه قد أحدث تحولا كبيرا في نظرة الفنانين إلى الواقع المحيط بهم فها هو يحرض نخبة من التشكيليين للعمل على تاسيس جماعة بغداد للفن الحديث ويكتب اولى بياناتها لتصبح هذه الجماعة بفضل جبرا وتنظيراته من ابز الجماعات الفنيه في الوطن العربي

وتراه في مكان اخر يحرض المسرحيين العراقيين على تقديم مسرح اللامعقول والعبث ويترجم لهم مسرحية في انتظار غودو ويذهب اكثر من ذلك حين يحول حوار المسرحيه الى اللغة الدارجة لتعد في حينها اول محاولة عربية لتقديم مسرح اللامعقول لجمهور خليط من العامة والمثقفين ، وياخذ بيد السياب وجماعته ليدلهم على خلود القصيدة الحديثة حين يضع في ايديهم ترجمته لكتاب فريزر (الغصن الذهبي) والذي يقول عنه السياب (تعلمت من كتاب الغصن الذهبي كيف اوظف الاسطورة في القصيدة)

كانت بغداد الخمسينيات ..تموج بمعماريين عالميين ومصممين ومخططين حضريين هم رواد الباوهاوس ومنعرجات مدرسة الحداثة القادمة معهم ..وكان ثمة شباب جدد يغامرون في طرح افكارهم وتصاميمهم لبلاد تضم مدنا وشوارع وكيانات معمارية مثل حلم مستحيل وممكنا يضا ..

وقد ظلت صور بغداد ترد في نصوص جبرا كأماكن و ملاذات وزوايا حميمة .. هي كناية عن فنادق وبيوت وحدائق .. وخلوات لفنانين وطالبي معرفة ومجددين وعشاق ايضا .

في كتب جبرا ابراهيم جبرا التي جاوزت الخمسين في الشعر والرواية وكتب النقد والترجمات الشكسبيرية اشارات شتى الى تلك الأماكن والأسماء والرؤى بشكل يشي بأن بلادا كانت تقوم ، ووعيا يبتنى ، وذاكرة تحتشد ..وترجمات تنقل صورة العالم وتيسرها ليصير ممكنا اي تجديد ..ويتحول اي مشروع حلمي الى حقيقة على الأرض. كتب طافت في مدن العالم الا ان بغداد ظلت على الدوام يحكي عن ا علاقته بها في كل لمحة من كتابته .. ان بغداد هو اطار حضوره الدائم وصخب امسياته ولياليه او في صخب الرفقة الدائمة ..وهو المحتشدة بتفاصيل الرفقة وهي بغداد المدينة الواعدة في خمسينيات القرن الماضي

يكتب جبرا في كتابه الاثير شارع الاميرات:

(في ربع القرن الأخير في مرحلة النضج من حياتي بعد ان نشأت بيني وبين عدد من الأمكنة علاقة الحب التي ذكرتها ، قامت علاقة حب بيني وبين شارع الأميرات في حي المنصور مازلت اتمتع بنبضها وايحاءاتها)

جبرا وعبد الوهاب البياتي

×××

في بيت جبرا ذي الطابقين المحاط بالاشجار ، في هذا البيت كانت الكتب والموسيقى ولوحات لابز رسامي العراق هي العلامة المميزة لساكني هذه الداروكانت قد نشرت ظلالها على البيت بأكمله، وتكاد تجد الكثير منها على طاولة الكتابة. عادات جبرا في القراءة أنه لا يخلد إلى كتاب واحد حتى ينهيه، بل تجده يقرأ، في آن واحد، في أكثر من كتاب ،ظلت ابواب بيته مفتوحة دائما للجميع فالمكتبة التي حلم بها اصبحت واقعا وهي متاحة للجميع شعراء و فنانين مفكرين وسواهم.يتذكر جبرا مكتبته العامرة بالكتب والاصدقاء الذين تمتد لتستعير كتابا ربما لن يعود الى مكانه ثانية : (قد أبالغ احيانا اذ اتحدث الى صديق ونحن نتامل مكتبتي ، فاقول ان الذي خرج منها ولم يعد قد لايقل عنها عددا ..منذ بداية حياتي كنت اعير كتبي لكل من يطلبها عملا بمبدأ شيوع المعرفة)

شيوع المعرفة والسعي اليها لم يمنع شلة من الارهابيين من ان يعبثوا بهذه المكتبة التي شكلت جزءا مهما من تاريخ العراق المعاصر

اليوم وبعد الذي حدث اتخيل الاستاذ جالسا في مكانه الاثير الى قلبه .. المكتبه حيث الغرفة المليئة برائحة الاوراق والكتب يقرأ في كتاب خرج حديثا من مطابع لندن .. يتحدث الى صديق او يدقق في وجوه السائلين عن زاد معرفي .. كائن رقيق الملامح .. عذب النفس .. انيس .... سريع البديهية صريح يترك مظهره لدى من لايعرفه بانه شخص صعب وصارم لكن هذا الانطباع سرعان ما يتغير ليترك خلال دقائق انطباعات اخرى عن رجل يعشق الحياة قدر عشقه للفن.

الذين كانوا يترددون على بيت جبرا منذ بداية منتصف الستينيات يرونه في الحالة نفسها من جلساته الشهيرة قي مكتبته فهو يجلس وحوله العديد من الكتب والاوراق والاضابير التي تحوي ترجماته لاحدث المقالات او الكتب . جلسة جبرا هذه الى المكتبة كانت بالنسبة اليه مختبراً وورشة ثقافية للبحث الدائم في اصول الفن العراقي ورائدا للكشوفات التي تميزت بالغنى المعلوماتي.. بين حين وحين كانت تتحول المكتبة الى صف تدريسي الاستاذ فيه جبرا ابراهيم جبرا المثقف الواسع القرارات والتلاميذ هم طلبة دراسات عليا في المسرح والنقد

سنوات مرت على غياب جبرا لكنني اراه كلما قادتني خطواتي الى مسرح اوقاعة فنون تشكيلية او مكتبة اراه مرآة شاخصة في صدر الثقافة العراقية .. مرآة كبيرة نرى فيها انفسنا وملامح عقود زاهية مرت في تاريخ بغداد .. مراة هائلة تسكنها وجوه وهامات رسمها الاستاذ جبرا بريشة بارعة وصادقة وجوه تملك حضورا وحياة واستمرارية في الزمان اكثر من الاحياء انفسهم .. شانها شان كل فن عظيم.

ما تبقى من مكتبة جبرا

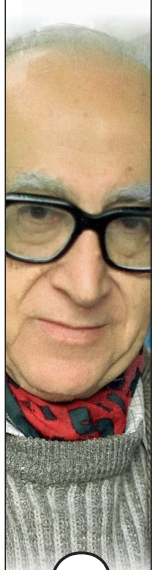

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

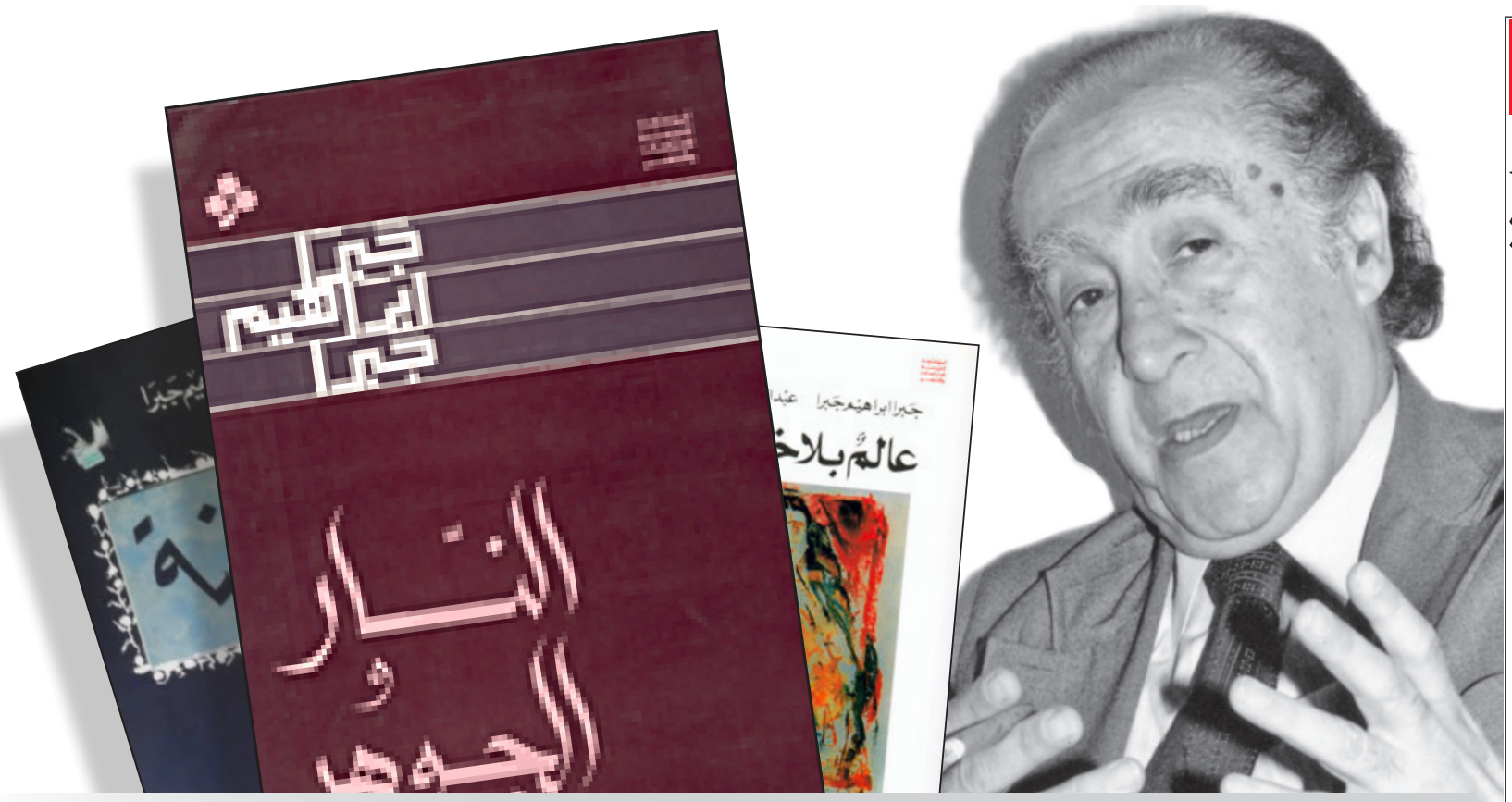

جبرا ابراهيم جبرا - الكاتب والكتابة

حليم بركات ×

توفي جبرا، فاستيقظت في نفسي أربعون سنة من الذكريات ، فقد وطنه الاول وانهار وطنه الثاني عليه ، فكيف لقلب ان يتحمل كل هذا القهر.. ليس غريبا انه مات ، لولا الكتابة لمات منذ زمن من منا نحن الذين نحبه يمكن ان يحمل العبء عنه ؟

هذه مقالة كنت قد كتبتها منذ اشهر قبل وفاة جبرا ابراهيم جبرا لتنشر فى كتاب أعد من قبل اصدقائه تكريما له .. وانني انشرها دون تعديل علها تعبر عن نفسها وعني.

هل هناك ما هو اكثر تكريما للكاتب من الدخول في نقاش معه ؟

هل يمكن الفصل بين الكاتب والكتابة ؟ واذا لم يكن من الممكن الفصل بينهما، هل يجوز الدمج فنعتبرهما واحدا واذا لم يكن . من الممكن الفصل او المدمج ، فكيف ننظر للعلاقة بين الكاتب والكتابة كعملية ونتاج فى أن واحد؟

ليس هدفى أن اجيب على هذه الاسئلة فى هذه المقالة وان كان يهمني ان الواقع ضوءا على طبيعة العلاقة بين الكاتب والكتابة من ، خلال تجربة جبرا ابراهيم جبرا فى المزج بين ، الواقي والوهم فى غالبية ما كتب قد لا يكون هناك بين التجارب الادبية العربية المعاصرة ما هو اكثر مدعاة لطرح مثل هذه الاسئلة من تجربة جبرا وخاصة فى نتاجه الروائي.

وكثيرا ما شغلتني هذه الاسئلة بالذات منذ تعرفت اليه في منتصف الخمسينيات حين كان يحضر مع عائلته من بغداد للاصطياف في لبنان ، بقدر ما اتعرف اليه واتعمق في قراءة نتاجه بقدر ما تتحول ، انطباعاتي الاولى الى قناعات بانه لايمكن الفصل بين جبرا الانسان وجبرا الكاتب او بينه وبين كتاباته .

من ناحية أخرى وفى آن واحد، تعمقت : قناعاتي بانه لا يمكن الدمج بينهما كليا، بين الفصل والاندماج مسافة شاسعة ولكن هناك لقاء وثيقا ايضا مما اقصده هنا ان صوت جبرا فيما كتب يعلو على كل الاصوات «اقصد اصوات الشخصيات التي خلقها" دون ان يلغيها ولا غرابة فى الامر فان صوته متعدد الاصوات ، ولايشكل التعدد نشازا بل هو انسجام.

وربما اهم من هذا كله ان جبرا كان يسعى دائما لان يتجاوز نفسه فخبر تحولات مضنية وقد اراد ان يتجاوز نفسه لانه لم يكتف بمعرفة الحقيقة كما هى بل كان يسعي لان يملك حلما لنفسه بقدر ما هو حلم لهذا المجتمع العربي الشقى، وقد بدأنا على صعيد عام ندرك في الربع الاخير من القرن العشرين عمق الشقاء العربي وقد اخذ الحلم يتحول امام اعيننا الى اوهام . وما بدأنا ندركه مؤخرا على صعيد عام ، كان بعض المبدعين من اصحاب المنهج النقدى والرؤى المستقبلية قد وعوه وكتبوا حوله منذ منتصف القرن في الاقل .

اثير موضوع المزج بين الواقع والوهم منذ اللقاء الاول بين جبرا وبيني في منتصف الخمسينيات اخبرني جبرا. وقد عنى لى ذلك الكثير في مطلع حياتي الادبية . إنه كان قد قرأ قصة قصيرة لى نشرتها فى مجلة الاديب تلك السنة ، وكان اخوه قد نبهه اليها باعتبار ان هناك شبها بيننا من حيث المزج بين الواقع والحلم بحيث يصعب التمييز بينهما. بل كثيرا ما كان يعصب ايضا التمييز بين الحلم والوهم ، وقد استمرت هذه النزعة كموضوعة واسلوب فنى في كتابتينا حتى الوقت الحاضر.

اشار جبرا لهذا فى رسالة كتبها لي بتاريخ ١٩٥٧/١١/١٩ بعد ان كتب مقدمة بعنوان «الحرية والطوفان» ، لمجموعتي القصصية الصمت والمطر التى كنت قد دفعتها للطبع عن دار مجلة شعر، قال "ويعجبني كما ترى من مقدمتي انك ترى تفاعل الوهم والواقع في حياتنا، وهذا كما تعلم من مواضيعي ايضا، اتذكر حديثنا في مقهى " الانكل سام "؟

فانت لذلك تاتي القارئ بكشف جديد ووعى لحياته لم يكن يتوقعه ". وقد ظهر تفاعل الحلم او الحلم . الوهم – والواقع خاصة في قصتي "رمال " التى كانت اول قصة نشرتها ولم اكن قد قرأت جبرا بعد، وفي قصة "الصمت والمطر" التى عنونت المجموعة بها والتي كتب لى جبرا عنها في الرسالة نفسها قائلا، "قصتك الصمت والمطر والعنوان "بسل وموح " . احسن ما فى المجموعة ، من اروع ما قرأت من قصص عربية وهي تشير الى خط التطور في فنك .

واكثر ما اعتز به شخصيا ما استخلصه جبرا في نهاية تلك المقدمة من "ان لحليم بركات صوته الخاص ... انه صوت من رأى ورئي ، واحس بالمأساة ، اذن بدأنا نحس بالمأساة حتى في اوج زمن التفاؤل بالمستقبل ؟ بل بدأنا نرى نزعة واضحة في السلوك العربي العام للعيش في متاهات الوهم نتيجة لصعوبة تحقيق ما نريد في الواقع .

وفيما يتعلق مباشرة بمسألة التفاعل بين الوهم والواقع ، ذكر جبرا في مقدمته ، لمجموعتي القصصية الصمت والمطر ان هناك اربعة مقاييس استخلصها "من" احسن القصص الموضوعة حتى الآن " هي استكشاف الشخصية، نقد الحياة ، الشكل – فيما يتعلق بالاستكشاف الذي اعتبره دلالة الحركة والبحث ونفاذة الرؤية، قال ان الاستكشاف لا يجرى في الخارج الواقعي فقط، بل في الداخل ايضا في مطاوي النفس والدماغ . في متاهات الوهم.

وتتابعت المعزوفة بشكل مباشر وغير مباشر كما لو كانت "لايت موتيف " جميع مؤلفات جبرا، ورد في قصة عرق ان الشباب ... يقبلون بالوهم فيجهلون اغتنام الحقائق ، وفي السفينة ان الطيبات كلها وهم – ارفع الوهم . تضمحل المتعة الأخيرة ، ولا يبقى الا الملح (ص ٨٤)، وفي عن وليد مسعود، "كلنا غارقون في اوهامنا (ص ١٦٠) أو ام طريقة مريم بخلطها الدائم بين الوهم والواقع ، (ص ١٧٢) ثم عنون احدى مجموعاته النقدية "بـ" "اقنعة الحقيقة واقنعه الخيال".

وتعمق احساس جبرا بالتمازج بين الواقع والوهم في الرواية الاخيرة التي قرأتها له وهي رواية سراب عفان التى تختلط فيها الوقائع بالاحلام لدرجة لا نعرف فيها فيما اذا كانت سرابا مجرد سراب أم لا، في الوقت الذي يبدو الصعب التمييز بين نائل عمران وجبرا يقول نائل عمران فى هذه الرواية، "غير اننى لاكثر من ثلاثين سنة كنت اعى الحد الذي لابد ان يفصل ، في مكان ما من التجربة بين الواقع، والخيال، وبين المحتمل والمستحيل ، بين ما يمكن ان تجود به العلاقات الظاهرة بين الناس بكل تشعباتها وبين ما يمكن ان تجود به القريحة التى تعمل سحرها في هذه العلاقات (ص ٢١٧)".

وترى سراب عفان فيه تماما ما رأى في نفسه، فتصفه بانه يحلم وهو يقظ ناسجا معه الممكن واللاممكن، المحتمل والمستحيل ، على هواه ، وقد يعيش زمنا في داخل ما ينسج (ص ٢٢) وتتساءل ايضا بينها وبين نفسها، ولكن هل استطيع حقا ان اقول شيئا ممتعا عن الواقع اذا لم اتناوله بشيء من بحبوحة الخيال ؟ وهل استطيع الاستمرار في الخيال دون ادخال شيء من الوا قع فيه ؟ (ص ٣٧) وحين تكتب تعترف ، انني ما عدت افرق بين ما هر حقيقي وما هو مجرد وهم (ص ٣٩).

وفي كتابتها كما في حياتها تمثل «مونودراما» وتتلبس فيها في الاقل "ثلاثة ادوار" وتتكلم بثلاثة اصوات (ص ٧١).

شخصيات جبرا ما تعجز من التمييز بين الواقع والحلم وذلك لسبب رئيسى فقد تمازج في واقعها الحلم واللاحلم فلا ينفصل الواحد عن الأخر هنا قد يتساءل القاريء عن سر مثل هذا التشديد على مقولة المزج بين الحلم والواقع، وقد يتوصل متسرعا الى انه ناتج عن التأثر بالثقافة الغربية ، وفي رأي انه يخطىء حين يتوصل الى هذا الاستنتاج أقول ليس السبب في هذا اننا درسنا فرويد وتأثرها بمقولة العلاقة بين الكتابة الابداعية والحلم ، كتبنا حول هذه المسألة لاننا دققنا في دراسة الواقع العربي فلاحظنا ميلا للاحباط بسبب فشلنا افرادا وجماعات ومجتمعا – في تحقيق اهدافنا ورغباتنا، ونحن نعرف من خلال تجاربنا الخاصة وملاحظاتنا "كما من خلال القراءة " ان الانسان كثيرا ما يحاول التغلب على الاحباط باللجوء الى تحقيق رغباته عن طريق احلام اليقظة والتوهم .

وقد اكتشف جبرا ابراهيم جبرا ان العربى معرض لكل انواع الضغوط والمنع والقمع حتى اصبح مسحوقا ومكبلا بواقعه لذلك يسعى للتحرر من واقعه من خلال الفانتازيا – قد نمت لمخيلته جوانح جبارة ، وقد اطلق لها العنان دون ان يتجاوز مكانه .

ترى تلك هي مأساة الحربي المعاصر؟

× حليم بركات : روائي وعالم اجتماع
مجلة نزوى
ملف خاص عن ذكرى رحيل جبرا ١٩٩٥

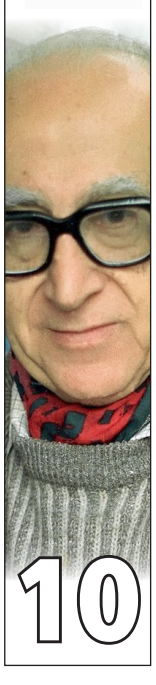

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

حين سألني جبرا كيف " شمّعت " الخيط ؟

صلاح حسن

كنت مندهشا بقدر ما كنت فرحا بهذه الاكتشافات الجديدة (شوكولاتا وشاي مثلج) وفي بيت جبرا ابراهيم جبرا الذي احضر لي قصائدي المنشورة في الخارج !! أي نوع من الرجال هذا الشخص ؟؟ لم اكن اتكلم كثيرا وقد شعر جبرا بقلقي فقام واحضر الصحف ومجلة كبيرة هي مجلة اليوم السابع التي كانت تصدر في باريس وقد نشرت لي قصيدة طويلة اخذت صفحة كاملة من المجلة

(شمعت الخيط) بهذا المثل العراقي المشهور استقبلني جبرا ابراهيم جبرا حينما جئت ازوره في فندق القدس في عمان بعد فراق دام سنوات. يقال هذا المثل العراقي للناجي من بطش السلطات الجائرة مهما كانت . كنت قد فررت في العام ١٩٩٢ بأعجوبة من ايدي المخابرات العراقية في ذلك الحين بمساعدة اشخاص لا اعرفهم حضروا من تلقاء انفسهم الى مقهى حسن عجمي واخبروني بضرورة الهرب الى أي مكان قبل حضور عسس الليل . المفارقة ليست هنا ، ولكنها تكمن في الشخص الذي يستخدم هذا المثل . وحين يكون هذا الشخص جبرا ابراهيم جبرا فأن المفارقة ستتحول الى موقف وقرار خطير .

كان ذلك قبل سنتين او ثلاث سنوات من وفاته واذا كنت اتذكر جيدا فالمناسبة هي مهرجان جرش الثالث عشر . كنت مدعوا لقراءة نصوص للاطفال ، وكان جبرا مدعوا الى مؤتمر في لندن وينبغي عليه ان يمر على عمان لانها كانت المنفذ الوحيد للعراق الى الخارج . طلب لي فنجان قهوة وبدأنا نسترجع ذكريات قديمة عن بغداد وشارع الاميرات واتحاد الادباء وسألني عن المعجزة التي جعلتني انجو من الكارثة (كيف شمعت الخيط) .

اخبرته بالقصة فهز رأسه في الهواء كأنه يعتذر عن سذاجة السؤال وسألني ان كنت بحاجة الى مساعدة مادية ، ولكنه استدرك وقال ان لديه هدية لي سوف يحضرها في المساء اذا عدت الى زيارته ليلا . كانت قنينة عصرية عادة ما يحرص القادم من العراق تقديمها كهدية الى اصدقائه المنفيين الذين يعرفون مرارتها وطعم الطين فيها . في الصباح الذي تلا هذا اللقاء غادر جبرا الى لندن ولم اره بعد ذلك ابدا .

تعود علاقتي بجبرا الى منتصف الثمانينيات من القرن المنصرم واول مرة التقيه بشكل مطول كان في دار المأمون للترجمة حيث كنت اعمل هناك مصححا لغويا . اخبرني انه وجد لي بعض القصائد منشورة في صحف ومجلات متفرقة تصدر كلها خارج العراق الذي كان يخوض وقتها حربا عبثية مع ايران . كما اخبرني ايضا انه يحتفظ بهذه الصحف والمجلات في بيته ويمكنني ان ازوره والحصول عليها . كنت سعيدا للغاية من سلوك هذا الرجل الذي كنت انظر له بهيبة ووقار شديد .

بعد يومين كنت في بيته في حي المنصور الراقي في شارع الاميرات . بيت جبرا عبارة عن مكتبة كبيرة فالكتب تستقبلك اينما اتجهت حتى الممرات كانت تزدحم بجانبيها بكتب متعددة الاشكال واللغات . كنت مرتبكا قليلا وانا اجلس على طرف الكرسي حين فاجأني جبرا بصحن انيق فيه انواع مختلفة من الشوكولاتا واظن انها المرة الاولى التي اتناول فيها شوكولاتا حقيقية ، فمن عادة جبرا ان يقتني الكثير من الحلويات الغربية عندما يكون في زيارة الى اوروبا . تناولت قطعة وبدأت اقلبها في فمي لطعمها المذهل قبل ان ازدردها وتناولت اخرى مثل طفل محروم يشجعني جبرا بتناول المزيد غير اني توقفت . بعد قليل ذهب جبرا الى المطبخ واحضر شايا مثلجا وقال لي جرب هذا . كنت مندهشا بقدر ما كنت فرحا بهذه الاكتشافات الجديدة (شوكولاتا وشاي مثلج) وفي بيت جبرا ابراهيم جبرا الذي احضر لي قصائدي المنشورة في الخارج !! أي نوع من الرجال هذا الشخص ؟؟ لم اكن اتكلم كثيرا وقد شعر جبرا بقلقي فقام واحضر الصحف ومجلة كبيرة هي مجلة اليوم السابع التي كانت تصدر في باريس وقد نشرت لي قصيدة طويلة اخذت صفحة كاملة من المجلة . كنت اتمنى ان اسمع من جبرا رأيه فيما اكتب وكدت اهم بسؤاله ولكني تراجعت في اللحظة الاخيرة . لقد كنت في الخامسة والعشرين .

خرجت من بيته وانا اكاد اطير من الفرح ، ليس بسبب القصائد المنشورة في الخارج فقط ولكن لاهتمام جبرا الملحوظ بي هذا الرجل الذي كنت انظر اليه بوصفه شخصا يعرف كل شيء عن الادب والفن والترجمة اضافة الى ابداعه في هذه المجالات كلها . قبل ان اخرج اعطاني رقم هاتفه وقال انه يمكنني ان اتصل في أي وقت اشاء . عندما كان يقال لي ان جبرا في الخارج كنت انتظر بفارغ الصبر عودته محملا بعدد من الصحف والمجلات الجديدة التي كنا محرومين منها في العراق ، اضافة الى الشوكولاتا والشاي المثلج طبعا .

البعض من المثقفين العراقيين كان يعتقد ان جبرا كان مستفيدا من نظام الدكتاتور صدام حسين نظرا للمكانة التي يتمتع بها والامتيازات المادية التي يحصل عليها ، ولكنني شخصيا اعتقد ان نظام الدكتاتور كان هو المستفيد من وجود جبرا في العراق ، فلا احد يستطيع ان ينكر اسهامات جبرا الكثيرة في مختلف المجالات الادبية والفنية . لقد كان وجود جبرا بيننا محرضا بحد ذاته ، وعندما يقول شخص مثله وبفم مملوء لشخص هارب من جحيم القتلة (كيف شمعت الخيط) ؟ الحمد لله انك استطعت الهرب ، يعني ذلك ان جبرا كان معنا وليس ضدنا ابدا .

انا وجبرا

سركون بولص

أصبحت بغداد مركز أحلامي الواسعة بعد ثورة تموز ١٩٥٨. فقد أُبيدت العائلة المالكة، الدمية البريطانية، وأممت شركات النفط، وطُرد الإنكليز من البلاد. كان العراق في حالة اضطراب تامة، والشعراء يؤلفون قصائدهم بعجلة من أمرهم.

في هذا الوقت بالذات اكتشفت الشعر. كنت في الرابعة عشرة من العمر وقد بدأت قراءة الكتب. الثورة الحقيقية كانت قد حدثت في رأسي. صرت أكتب بحمية، وأرسل مقالات وقصائد الى جريدة البلاد، ابرز الصحف اليومية، وجريدة النصر. ولك أن تتخيل كم كنت في حالة اهتياج، إذ أني هاجرت إلى بغداد تاركاً بيت والدي، ولذت ببيت شقيقتي الكبيرة وزوجها في بغداد، وصرت أتعرف على كتابها الذين هاجروا مثلي إليها، ملتهمين كل شيء نفتقده في مدننا الضيقة الأفق.

كانت بغداد مدينة أحلام رائعة، حيث تزدحم ضفافها بالمقاهي التي يؤمها الناس للشرب والاحتفاء بالحياة. لعلها كانت المرحلة اليتيمة في التاريخ العراقي التي لا تتمتع فيها السلطة بقوة تقود فيها زمام الثقافة والمثقفين. وبتصميم على التغيير في حقل الأدب، كنا نحن الكتاب على معرفة تامة بفرصتنا هذه. حررت شخصياً عدداً من الصفحات الثقافية، وبثثت فيها الكثير من أفكاري حول الحرية والفوضى، مُستقاة بصورة رئيسية من أفكار سارتر، كامو، هنري ميلر. الوجودية والاشتراكية كانتا الموضة الطاغية، لا في العراق وحده، بل في العالم العربي أجمع..

كان الكاتب والقصصي نزار عباس دليلي في المدينة. كان من أذكى الذين التقيتهم. كان يعرف كل كتاب الجيل السابق، وقدمني لهم.

ولك أن تتخيل ما الذي كان يعني لي، في عمري ذاك، أن أكون مع شعراء وكتاب كانت كلماتهم بالنسبة لي أكثر قداسة من الكتب المقدسة ذاتها. الكاتب الفلسطيني جبرا ابراهيم جبرا الذي كان ينشر كل كتاباتي التي أرسلها له من كركوك، في مجلة كان يحررها بعنوان "العاملون في النفط"، كان معلمي الأول. كنت كثيراً ما أ، أزوره في مكتبه، خاصة في الأيام التي أذهب لتسلم بضعة دنانير مكافأة قصيدة أو قصة، أو ترجمة عن سارويان، جيسي ستيورت، شتاينبيك، أو بيراندلو.

كنت عادة ما أستلم بين ثلاثة إلى خمسة دنانير، كافية آنذاك لإطعام أربعة أو خمسة شعراء جائعين، بعد ليلة خمر في واحدة من الخمارات المفضلة على النهر.

مقتطف من حوار نشر مع الشاعر في جريدة النهار

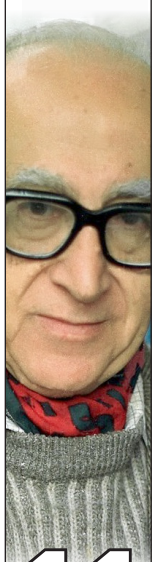

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

معلمي الاول

من افضل امثلة الشعر الحر مانجده في اعمال جبرا ابراهيم جبرا (١٩٢٠- ١٩٩٤)هذا العراقي الذي علمنا الكثير عن الاداب والفنون العالميه. اذكر انني سمعت عبارة (الشعر الحر) لاول مرة منه في حدود عام ١٩٥٠ وكنت ممن اسعده الحظ بالتلمذه عليه. .في العام ١٩٥٩ نشر جبرا في بغداد اول مجموعة له من الشعر الحر بعنوان تموز في المدينة . وفي عام ١٩٦٤ نشر ببيروت مجموعة المدار المغلق وفي عام ١٩٧٩ نشر في بغداد مجموعة لوعة الشمس في طبعة محدودة فاخرة ورسوم فذة بريشة اركان دبدوب، ثم اصدر الاعمال الشعرية الكاملة عام ١٩٩٠ ببيروت

د.عبد الواحد لؤلؤة

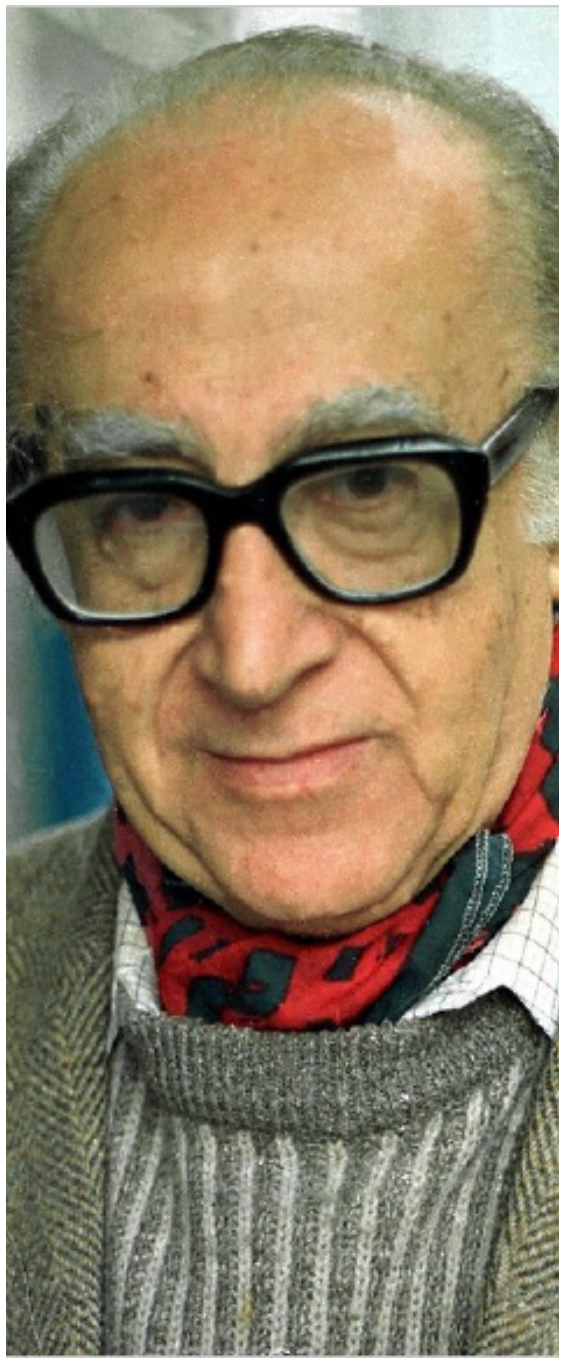

وبعد وفاته صدرت له عام ١٩٩٦ ببيروت مجموعة متواليات شعريه ، في هذه المجموعات تتضح لك صورة الانسان المثقف المطلع على كثير من الاداب العربيه والاجنبية ،لذلك لا تجد هزالا في كتاباته ، وقد تلمس غموضا سببه في الغالب الاشارة الى شاعر او اديب لاتقع في حدود ثقافة القاريء . ولان جبرا قد درس الادب الانكليزي في كمبردج وهارفرد ، واطلع على كثير من اعمال الشعراء الامريكان والاوربيين تجد شعره الحر غير مالوف، فهو لم يكتب قصيدة واحدة ذات وزن وقافية ، ، لان قصيدة تفعليه ولاقصيدة تراثية بشطرين ، فتحس ان مايكتب اشبه بالسعر المترجم . في شعر جبرا تجد صفات الشعر الحر التي حددها (باوند) و (اليوت) و(وتمن) من قبلهما .هنا اسطر يتراوح طولها حسب الصورة او الفكرة .وقد تجد ان بنية الجملة لاتتبع قواعد النحو العربي ، وقد تجد اشتقاقا غير مالوف ، او كلمة عامية او عبارة دارجة .كل هذا تقرره الصورة او الفكرة ، او احساس الشاعر بالتوتر الذي يتطلبه الحال .

هذه قصيدة من مجموعة متواليات شعرية ، التي تحمل عنوانا فرعيا يقول : بعضها للطيف وبعضها للجسد والطيف هو طيف لميعة التي وقع في حبها منذ ان جاءنا الى بغداد بعد النكبة الاولى بفلسطين وكانت تدرس معه في دار المعلمين العالية فتزوج منها وعاشا بنعمة الحب اكثر من اربعين سنة ثم اختطفها الموت منه عام ١٩٩٢ ولم يعش بعدها اكثر من سنتين في قصيدة (اللغز) ص٩١ نقرأ:

سأبقى فريسة ذلك اللغز الذي
ألقاه علي ابو هول
مصنوع من قهوة وعتمة ،
وانا خارج من مدينة "طيبة"
وهدد حياتي بالوباء إن أنا
لم اعرف الجواب:
"وجه مرمري شاحب ن حزنه
يزيد غموضه سحراً وحيرة،
مسكون بهم داخل همّ-
وجه امرأة كأنها للتوّ
انبثقت من قلب ظلام سحيق
في دثار أصفر باهر، كضياءِ
مقتطع من شمس ضحى
أطلت خطأً من بين الغيوم،
فجاءها رسول من قتام الدخان
وجرها من يدها صاغرة،
دونما التفاتة واحدة الى الوراء،
واختفى بروعتها الذهبية
في حلكة ظلام آخر، ينتظر.
اجنبي ، وانت الذي احببتها:
من أي ظلام خرجتْ
وفي أي ظلام أقحمت؟"

ثم سؤال ابي الهول ، الذي يتكرر مع الزمن ، لكن السؤال الان ليس عن "الانسان" بل عن " الموت" وهو موضوع القصيدة:

رأيتها ساعتئذ ، واخذت
وما زلت مأخوذا بما رأيت
ولا اعرف الجواب،
وابو الهول ما زال يسألني،
وأنا على عتبات "طيبة" ،
ويهددني كل مرة بالوباء.

بعد وفاة "لميعة" غدا الموت موضوعاً رئيساً في تفكير جبرا، الى جانب الحب، وهذه القصيدة تستند الى اسطورة (أويد يبوس) المعروفة في الاساطير الاغريقية، أو كما صورها (سوفو كليس) (القرن الرابع ق.م) في مسرحية أوديب ملكاً، عندما اقبل (اوديب) على ابواب "طيبة" الاغريقية ، المضروبة بالوباء ، كان عليه ان يفسر اللغز الذي القاه عليه ابو الهول ، الذي كان يحرس بوابة المدينة: من هو المخلوق الذي يمشي على اربع في الفجر، وعلى اثنتين عند الظهيرة، وعلى ثلاث في المساء؟ والجواب هو الانسان، الذي يحبو على اربع في فجر حياته، وعلى قدمين عند اكتمال بنيته، وعلى قدمين وعكاز في أواخر عمره. ومعرفة (اوديب) بالجواب رفع الوباء عن مدينة طيبة. وابو الهول في قصيدة جبرا "مصنوع من قهوة وعتمة" كلاهما معتم عتمة ايامه ولياليه بعد غياب (لميعة) عن هذا العاشق الابدي ، لياليه اكواب قهوة متلاحقة ، وعالمه عالم "طيبة" ولنلاحظ ايحاء "الطيبين" دون "الاموات" لكنها صورة عالم مضروب بالوباء.

كان الشاعر في هذا الحلم/ الكابوس "خارجاً) من "طيبة" بعد ان كان قد دخلها كما دخل الشاعر/ المغني الاسطوري (أورفيوس) الى العالم السفلي، عالم الاموات في الاساطير الاغريقية، بحثا عن زوجته المعشوقة الحورية، (يوريديكه) .استطاع الشاعر /المغني ان يستميل (برسيفونه) حارسة عالم الموتى ، ليعود مع الحبيبة الى عالم الحياة، شريطة ان يسير امامها ولا يلتفت الى الوراء لكي ينظر إليها، والا اعيدت (يوريديكه) الى عالم الموتى. لكن (أورفيوس)لم يطق صبراً، فأختلس نظرة الى الوراء ليلمح الحبيبة ، فاختطفها عالم الموت من جديد، وبقي (أورفيوس) ينتظر، ويغني ، وليس من امل بعودة الحبيبة.

سؤال "ابو هول العتمة" هذا يشبه سؤال ابي الهول الاسطوري الذي يلقي باللغز ليكون الجواب الصحيح سبباً لرفع الوباء عن "طيبة" عالم الاحياء – الاموات ، لكن السؤال هنا عن صاحبة الوجه المرمري ، الشاحب ، المسكون بهم داخل همٍ من أي ظلام خرجت، وفي أي ظلام أقحمت؟ كيف ظهرت للمحبة طيفاً "أطلت خطأً من بين الغيوم" ثم "جاءها رسول من قتام الدخان" هو ملك الموت الذي استعادها الى مملكة الموت من جديد؟ لكن العاشق لايعرف الجواب، لذا بقي مهددا بالوباء، ما معنى الموت؟ سؤال اشد صعوبة من سؤال أوديب. قال ارتفع الوباء وهنا ما زال يهدد بالموت. الشعر هنا لايعتمد في إيصال أثره على وزن وقافية وبلاغة ألفاظ ومحسنات بلاغية، إنه شعر من "صنف آخر" يتطلب عدة تختلف عن العدة البلاغية اللغوية، على جمال هذه وجاذبيتها. الثقافة واتساع الافق المعرفي ضرورتان للتمتع بهذا الشعر. اما رصف الكلمات من دون معنى وتشكيل الاسطر كيفما اتفق، من أجل الإدهاش والاختلاف فهو إجراء لا يتصل بالشعر ولا بالثقافة بحال من الاحوال ، إفادة المعنى جوهر الشعر.

كتاب تكريمي عن جبرا
صدر عام ١٩٩٤

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

جبرا إبراهيم جبرا: السنوات لي ما كانت لغيري

قيس مجيد المولى

تشير الدراسات إلى أن المرحلة الأولى للمؤسسين والمنضوين باتجاه الظاهرة الجديدة (قصيدة النثر) والمتمثلة برواد (مجلة شعر) في مرحلتها الأولية تشير إلى أن هناك وجهات نظر مختلفة تتصل بمعطيات هذه الحركة وأبعادها التطبيقية، ولعل فترة الاستحضارات تلك كانت بمثابة التوجه صوب عموميات الشعر لكن المخاض اللاحق كان السعي لتفجير طاقات اللغة ومغادرة الشكل القديم والعديد من أبوابه، ولكي يكون بمقدورنا تصور ذلك الهاجس لدى رواد الحداثة الشعرية لا من خلال تنظير اتهم الشعرية بل بالاطلاع على نماذجهم الشعرية التي لازموا بها مجلة (شعر) لاكتشاف ذلك الخلط مابين قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر ،لذلك وجدنا بـ «جبرا إبراهيم جبرا» ذلك المبتغى لكشف تلك الهواجس.

ففي مطلع الخمسينيات بدا «جبرا إبراهيم جبرا» بنشر قصائده التي أسماها آنذاك (بالشعر الحر) لكنها في الشكل وفي المضمون تختلف اختلافا جذريا مع قصيدة نازك وبدر والبياتي سواء موقفها من التعامل مع اللغة أو الأسطورة أو حتى بطريقة كيفية التعامل مع الذات على ضوء الاتجاهات العالمية الجديدة في الفكر والأدب.

كان جبرا يرى أنه لا بد من إيضاح مفردات القاموس الجديد وأثار قضايا جوهرية في حركة الشعر ولكنه كان عضوا رئيسيا في هذه الحركة رغم أنه لم يكن عضوا مؤسسا كحال أدونيس أو يوسف الخال وخليل حاوي ونذير عظمة.

كان حراك جبرا يقع بين وترين الوتر الذي يرى أن العقل لم يتغير فهو يقع في مدارات الرومانسية المبتذلة وأن القصيدة العربية تقدم نفسها بتنظيم بنائي تناظري وأن تطورت ففيها روح البناء القديم ووتر التراث العربي وضرورة الحفاظ على مقوماته وكذلك الانفتاح على الأنماط الغربية دون المساس بمقومات الأمة وحاجة اللغة لموجودات الصراع النفسي لدى الفرد العربي.

لقد رأى جبرا إبراهيم جبرا أن هناك توازيا لافتا للنظر بين معطيات القصيدة العربية ونمطها الغربي وهو يوعز ذلك إلى أن هناك تواصلا مابين الحضارات الحية يصل أحيانا حد التشابه في الصور والمخرجات الأخرى ومنها المخرجات المعرفية الكونية.

أن لقاء جبرا المشترك مع مؤسسي حركة شعر مكن جبرا من تقبله كون هذه الحركة لا تنفي أهمية التراث العربي رغم أنها أدارت فيمابعد ظهرها له لكنها دعت وضمن بيانها التأسيسي إلى أن التراث الشعري العربي، وكذلك التراث الثقافي يمثلان كلا تاريخيا لذا وجب فهم هذا التراث فهما عميقا للتمكن من تطويره ، وأعتقد أن مفهوم تلك المقولة في بداية مرحلة التأسيس تدل على شئ ما وفي المرحلة اللاحقة دلت على أشياء أخرى منافية تماما لما كان يجول في تراث جبرا التنظيري عن التجديد في الشعر العربي ، إذ إن الأولوية الأن وبحسب ماعبر عنها يوسف الخال هي بالتعامل مع التراث الإنساني والإنطلاق من هذا التراث لرسم الأبعاد الشعرية المطلوبة ذات المناخات المتعددة ، وقبله أشار أدونيس إلى ذلك أن الشاعر العربي المعاصر يعرف أن موروثه العربي ليس إلا جزءا من موروث آخر.

وأن الدخول الى الموروث الآخر هو الذي سيساعده على مواجهة الموت.

ان جبرا يرى أن الحضارة العربية لها خصوصية في النشأة والتكوين وهي حضارة ليست مكتسبة من حضارات أخرى بل كونها رافدا مهما للحضارات وهو بنفس الوقت لا ينكر أهمية الحضارات الأخرى وما أفرزت من ثقافات وبنى فكرية وأقتصادية وأجتماعية وسياسية بما في ذلك كل مايتعلق بالأنظمة والتشريعات.

ان البيان التأسيسي (بيان يوسف الخال)قد وضع أسس الشعرية الجديدة (التعبير عن التجربة الحياتية – الصور الحية – إبدال التعابير القديمة – تطوير الإيقاع – أولوية الإنسان في الصراع – وعي التراث الروحي – الإفادة من التجارب العالمية) لقد وضع جبرا إبراهيم جبرا رؤيته الشعرية لتلك المرحلة حين رأى ومقدما لمجموعته الشعرية (تموز في المدينة) بقوله «ان حصيلة الشعر هي إغناء البشرية روحا وخيالا وتجديد قدراتها للمزيد من غزارة الحياة وللمزيد من التأمل تأكيدا لوعي الإنسان».

لقد قدم جبرا خصوصيته الشعرية والتي بلا شك كانت ضمن أحد روافد المساهمات الجادة في الحركة الشعرية الجديدةولا عجب حين يقول الشاعر توفيق صايغ عما كتبه جبرا (لو فرضت علي الإقامة في جزيرة صحراوية ومسموحا لي بعشرة كتب فقط لجعلت أحد هذه الكتب (تموز في المدينة).

عند قدومه الى بغداد كان يرى فيه الأدباء والمثقفون العراقيون الانعطافة الحقيقية في الشعر والرسم والنقد وهم يرون جديته لتخطي واقع الأدب العربي إذ يقول جبرا ضمن سجالات نواة الحداثة آنذاك «إن إدخال نغمة جديدة على فن قديم يعتمد موسيقى تقليدية ، أمر يحتاج إلى جرأة وقدر كبير من القدرة والبراعة» ولاشك أن موجوداته المتنوعة والتي حملت بيئات مختلفة (فلسطين – العراق – بريطانيا – أميركا) وكذلك موجوداته الاستكشافية في الرسم والنقد والقصة والرواية والترجمة منحت شاعريته وكما وصفها هو بأنها «ذلك الرعب الشعري» حيث عجت مفردات قاموسه الشعري بنقائض كثيرة للخلاص.

إن فكرة التكامل في أشكاله الأدبية والفنية تلك بلغت أقصاها إذ استطاع أن ينقل مايريد من خطابات بمستوى واحد وببعدين سواء متعاكسين بين الحضور المادي والروحانية المجردة ولعل ذلك أحد أسباب شعوره بغياب الحرية وتلافي السقوط في عبودية الذات فجبرا يرى أن الأزمة قائمة ومن الصعب الفصل بين محركاتها المادية الجوهرية.

كانت أسئلته تجاه ذلك هو ما شكل نوعا من الارتباط بالبنى الروحية العميقة ويقينه بإستخلاص الجوانب الإيجابية للتراث والالتصاق باللحظة المحركة للفعل الجديد فالإشكاليات قائمة على المستويات الإدارية والسياسية والاجتماعية الاقتصادية ومازال قائما الرضوخ الى العقلية الإقطاعية وتقبلها ولكن جبرا قد رأى أن هذه المسببات قد قدمت جانبا إيجابيا للفكر العربي إذ عمقت ذلك التناقض مابين الرؤية للقديم والجديد بعد أن شملت هذه الأزمات العالم العربي برمته يقابل ذلك التطورات السريعة في النظريات الفكرية والأدبية والاجتماعية في الغرب وتوقع دخولها ميادين التطبيق في العالم العربي.

أدت هذه المفاهيم التي أتت بها المتغيرات المتلاحقة والتي هي الأخرى مست بنيوية اللغة إلى الاستجابة لذلك المتغير بقدر أو بآخر مع دعوته للحفاظ على الهوية الاجتماعية (المنجز الاجتماعي في كل ميادينه) وفق تلك المفاهيم ومتطلبات التغيير ووعيه وفي الرواية قدم جبرا. للقارئ العربي (البحث عن وليد مسعود– ١٩٧٨)ومع عبد الرحمن منيف وفي العام ١٩٨٢أي في بدايات أواخر المد القومي قدما عملهما الروائي المشترك (عالم بلا خرائط) في هذه الفترة ترجم جبرا إبراهيم جبرا العديد من المختارات العالمية ولعل أهم تراجمه (هاملت –ماكبث – الملك لير – عطيل وكذلك سونيتات شكسبير).

بعد أن درس الإنجليزية في إنكلترا وأجادها ترجمة وتخيلا وقام أيضا بترجمة أهم الاعمال الأدبية (لأوسكار وايلد – فوكنر – بكت) كما قدم أهم عملين نقديين (الحرية والطوفان – الأسطورة والرمز) وفي الشعر أنجز جبرا في العام ١٩٥٩ مجموعته الشعرية (تموز في المدينة) أي بعد اثنى عشر عاما من نشر بدر شاكر السياب لمجموعته الشعرية (أزهار ذابلة) وقد كان جبرا في تلك الفترة جزءا من حراك قصيدة التفعيلة وقد قرأ وناقش مع زميله عبد الوهاب البياتي كتاب نازك الملائكة (قظايا الشعر العربي المعاصر) واحتفيا به سواء في النقاشات العامة أو في اللقاءات التي كانت تجمعهم مع السياب رغم أن جبرا كان يثير في هذه المناقشات رأيه الشخصي عن مفهوم قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر (الأوروبية) وتوقعاته لمستقبل القصيدة العربية كونها لن تبقى كشريعة ثابتة.

إن ملاحظات جبرا عن قصيدة الشعر الحر بأنها نقلة من الشكل العمودي إلى شكل آخر جديد لكنها لم تلغ القافية بشكل كلي وبأن قصيدة النثر تمنح الشاعر حرية أوسع للتصرف باللغة كما أن مستوياتها التغريبية تكون باستخدامات غير تقليدية ، المهم في ذلك أن جبرا يرى أن حركة الحداثة سواء تلك التي قدمت على يد بدر ونازك أو تلك التي هبت فيما بعد رياحها من فرنسا لابد أن يكون لها موقف من الحضارة الإنسانية والوجود وتحديدا قضايا مساندة الإنسان ودعمه روحيا لتعزيز قنوات الانفلات الواعي فيه، أي تحرير الروح والنفس من التصورات البالية في ظل تعددية المفاهيم والتحديات ،وقد يكون هناك تناقض ما في مفاهيم يوردها جبرا عن العبث والانحلال والرفض الثوري لكنها ليست بعزلة عن ذلك التكيف التكاملي الذي أوجد به جبرا تلك المصالحة الهادفة مع حاجات النفس الكبيرة والكثيرة.

مع منيف والبياتي وزوجته

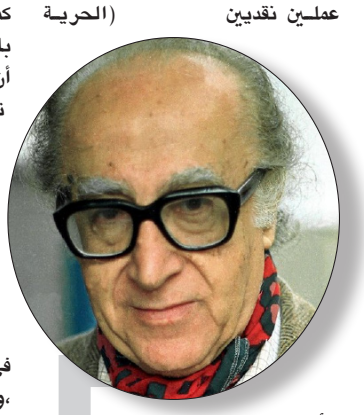

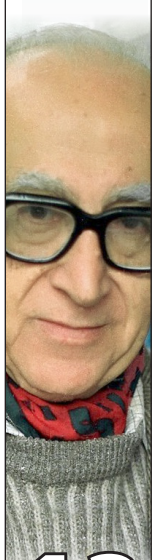

لقد قدم جبرا خصوصيته الشعرية والتي بلا شك كانت ضمن أحد روافد المساهمات الجادة في الحركة الشعرية الجديدةولا عجب حين يقول الشاعر توفيق صايغ عما كتبه جبرا (لو فرضت علي الإقامة في جزيرة صحراوية ومسموحا لي بعشرة كتب فقط لجعلت أحد هذه الكتب (تموز في المدينة).

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

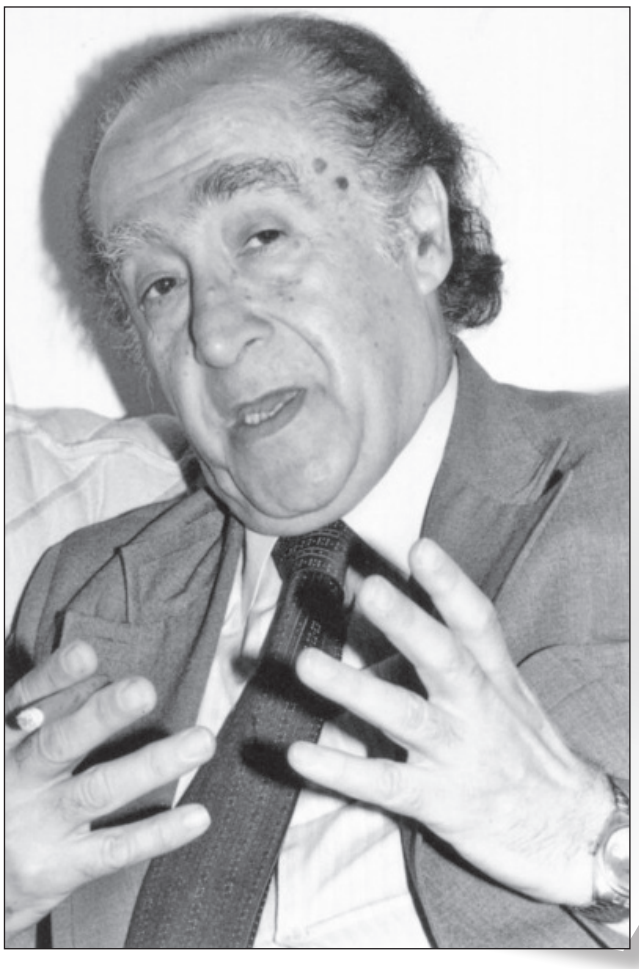

اعتقد ان عشق مدينة ما لا يختلف عن عشق اية امرأة.. فالعشق الاول يسعى الي خلق سمة مميزة للمدينة المعشوقة، فيما يسعي العشق الاخر الى ابراز ملامح المراة المعشوقة،وكأنها اكثر خلودا من سائر النساء والمثال الرائع الذي نستذكره دائما هو اراغون وحبه لالزا. تجربة عشق مدينة من المدن ليست تجربة صعبة كما هو الحال في تجارب العشق العادية..فكل مدينة لهاجذورها وملامحها واذا شئنا الدقة لها اصواتها الخفية،ولا اعتقد ان اية مدينة تفتقد القدرة علي اشعال الحنين،في الاقل في قلوب ساكنيها ،او ربما في قلوب زائريها
مدن جبرا كثيرة.تبدأ بالقدس في كل تفاصيلها، وتنتهي ببغداد.هذه المدينة العجيبة ..

جبرا وعشق بغداد

نوزاد حسن

ارض الف ليلة وليلة.. ارض السندباد ذلك التاجر المغامر الذي انطلق منها ليجوب العالم ثم يعود اليها بعد كل رحلة. انا اتساءل هل نستطيع ان نقلل من شان تلك العلاقة التي ربطت جبرا ابراهيم جبرا بمدينة مثل بغداد.انني اشك في ان يكون لقاء جبرا ببغداد عابرا، بل اجزم بلا تردد انها استطاعت اغواءه والهمس في اذنيه حتى اقتادته اليها وبعثت في روحه شكلا جديدا لمغامرة كان جبرا اسيرها،واستطاع ان يعبر عنها باناقة ورهافة رائعتين بغداد مدينة لها قدرة هائلة علي الاغواء..لها طقسها العريق في جذب الاخرين اليها .اتذكر استاذة غربية كانت تدرس في الجامعة المستنصرية في ثمانينيات القرن الماضي.ضربت ارض الغرفة المفروشة بسجادة مزركشة وهي تصرخ مرحة: اه البساط السحري.هذه الاستاذة بدت لي ساعتها طفلة، مرحة تريد ان تعود مئات الاعوام الى الوراء لكي تشعر بالنبض الحقيقي لوقائع امست الان وفي خضم الزيف المتنامي ـ طقسا جذابا قبل هذه الاستاذة كان بورخس مأخوذا بكتاب الف ليلة وليلة ..تلك التحفة البغدادية ففيه تكنيك غرائبي يستهوي مزاجا كمزاج بورخس،لذلك كان يقرأه بحرص منقطع النظير،وكان الكتاب في النهاية احد المصادر المهمة التي اسهمت في اثراء نصوصه الى حد كبير احب جبرا بغداد بكل جوارحه..كان متلهفا لزيارتها ولعل وصوله اليها كان حلما مميزا بالنسبة له(اذكر اني قبل حوالي ٤٠سنة قبل مجيئي الى بغداد سالت في دمشق رجلا كان قادما منها: هل بغداد مدينة كبيرة؟ فاجاب :نعم ففيها ١٤ ملهى.بالنسبة اليه وكان سائق سيارة ربما كان عدد الملاهي هو مؤشر الكبر والاهمية. اما انا فالذي احلم به... (الفن والحلم والعقل ـ جبرا ابراهيم جبرا ـ دار الشؤون الثقافية ص٢٠٦)

صورة واقعية لبغداد

السؤال هنا رغبة كامنة في اعماق المبدع الراحل،لكن الاجابة تبدو مخيبة للامل،وبعيدة عن الاحاطة بروح بغداد.. الا انها من جانب اخر تعكس صورة واقعية لبغداد في اوج عظمتها وانفتاحها ايام العباسيين،حيث كان يطوف في شوارعها وحاراتها عشرات الشعراء العابثين والشاعرات من القيان..وشاع فيها الغزل بالمذكر وهو غزل فاحش فرضه اسلوب الحياة في بغداد انذاك.

لكن هذا الجانب الحسي لا يمكن ان يعكس صورة بغداد الحقيقية.. هذه الصورة التي التقطها سائق سيارة حين سأله جبرا سؤالا جوهريا ..عن حجم مدينة بغداد. سؤال جبرا كان في حقيقته

اعتقد ان جبرا عرف كيف يعشق بغداد ،وعرف ايضا ان يسخر كل ما لديه من اجل الاحساس بها احساسا يمثله ويدل عليه كعاشق في زمن معاييره غير دقيقة وسطحية ايضا. فالعشق هنا ـ وفي حالة جبرا بالذات ـ بديهية تفرض علي العاشق ان يشكل من مفردات عشقه علاقة جديدة تلائم صورة معشوقته كل الملاءمة، ويمنحها سمتها الخالدة بين كل المدن

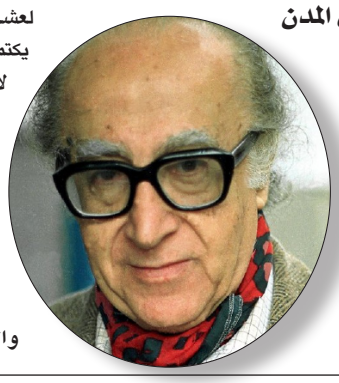

سؤالا عن احوال معشوقته قبل اللقاء بها..وهذا ما لم يستطع ذلك السائق فهمه او الاحساس به.

اعتقد ان جبرا عرف كيف يعشق بغداد ،وعرف ايضا ان يسخر كل ما لديه من اجل الاحساس بها احساسا يمثله ويدل عليه كعاشق في زمن معاييره غير دقيقة وسطحية ايضا. فالعشق هنا ـ وفي حالة جبرا بالذات ـ بديهية تفرض علي العاشق ان يشكل من مفردات عشقه علاقة جديدة تلائم صورة معشوقته كل الملاءمة، ويمنحها سمتها الخالدة بين كل المدن. واذا كان البير كامو قدم في كتابه اعراس مجموعة من المدن الغارقة بضوئها وشمسها وخرائبها وكل ما عبر عنه من خلال نزعته الحسية في كتابه ذاك،فان جبرا استطاع ان يعثر علي جذور مدينته او معشوقته ومن ثم النظر اليها علي انها الكمال الذي لا يفارقه الخلود ابدا.

واذا كان العشق على المستوي الانساني يقود العاشق الى الجنون ـ كتجارب الحب العذري ـ او الاستغراق في خلق صورة غير فانية للانثى ،فان عشق المدن او عشق مدينة بالذات يحتم على العاشق ان يجعل من تلك المدينة ـ مدينة فاضلة.. وهذا اعلى مراحل العشق والهيام.لدينا عاشق يوناني كبير خلق مدينة اسماها جمهورية افلاطون وحاول تنميقها وتقسيمها الى طبقات وجعل رئيسها الاعلى فيلسوفا اتعبته الثقافة..جمهورية افلاطون المخترعة كانت تخطيطا مثاليا لعشق افلاطوني لم يكتمل..واظنه لا يكتمل الي الابد.في جمهورية افلاطون لا مكان لشرور وتشوهات المدن من حوله.كان من حق افلاطون ان يعشق مدينته علي طريقته..لكن يبدو انه لم يستطع ان يحقق حالة الهيام على ارض الواقع فلجأ الى عالم المثال. جمهورية افلاطون كانت في الاساس نقدا لكل المدن التي افسدها الحكام والانظمة المستبدة.انها ادانة لاولئك الرؤساء والامراء الذين ينظرون من شرفاتهم المليئة بالزهور،وهم يرددون بسخرية:جمهوريةيحكمهافيلسوف..هذا حلم فيلسوف مجنون،لكن النقد يمكن ان يستشف من خلال البرنامج الثقافي الذي يضعه افلاطون للحاكم الفيلسوف.في هذا البرنامج يدان الحكام والرؤساء ممن تتغلب عليهم النزعة الانفعالية وحب السلطة وافتقاد الايثار والاحساس بالرعية.افلاطون عشق جمهوريته و بناها باستخدام طريقة(قياسا على) سوء خلق هذا الدكتاتور. لابد ان يكون الحاكم فيلسوفا.

افلاطون والفارابي

علي خطى افلاطون سار الفارابي..فقد عشق الفيلسوف الكبير مدينته ايضا. خطط لها جيدا وفكر فيها وتمنى لو انها وجدت لكن العشق الفارابي يشبه كثيرا عشق افلاطون لجمهوريته..كانا عشقين بلا جذور ولهذا لم يكن لمدينتيهما وجود ولن يكون بالنسبة لجبرا فان الامر يختلف لان هذا العاشق وصل الى مرحلة من الهيام جعلته يري في بغداد مدينة فاضلة بلا اي منازع.الا انه لم يكن مثاليا الى الدرجة التي كان عليها افلاطون ومن بعده الفارابي.كان جبرا واقعيا وهو يسعى في مدارج العشق البغدادي.كما قلت سخر جبرا امكانياته كلها للظفر بالمعشوقة،ومنحها كيانا جديدا خالدا..لقد كانت نظرته الى بغداد ثلاثية الابعاد،وقد ارتبطت هذه الابعاد فيما بينها ارتباطا قويا .ومن خلالها اكتسبت بغداد اولوية الوجود كمدينة فاضلة رائعة.

اول بعد اسهم في بناء كيان مدينة بغداد ـ معشوقة جبرا ـ هو البعد التاريخي.. فبغداد ليست مدينة بلا جذور.مدينة عادية يتقرر مصيرها في يوم محدد كغيرها من المدن .بغداد ليست كذلك ،لقد حاول جبرا ان يجد الجذر الذي تستمد منه بغداد نسغ وجودها..فوجد في خلفية المشهد الموغل في القدم حضارات وادي الرافدين بكل سطوعها، ورأى في مدينة بابل امتدادا تاريخيا لاور واريدو.وحاول ان يرصد من خلال سرده التاريخي السريع بعض الشيء المكانة المتفردة التي حظيت بها مدينة بابل.فهذه المدينة التي بنتها ايدي الالهة تعاقب عليها غزاة وغاصت في ارضها سيقان جيادهم القوية..المهم لاحظ جبرا ان حقيقة بابل او جوهر روحها لا يكمن في(تعايش شتى الاجناس والاديان واللغات بحماية نظام مركزي واحد وثقافة رائدة واحدة(ص١٩٨) وانما يتعداه الى روعة المعمار لزقورات وادي الرافدين وخاصة زقورة بابل المعروفة باسم برج بابل. اضف الى ذلك العلوم والمعارف التي زخرت بها تلك المدينة.ثم يستنتج جبرا استنتاجا طريفا(انها لم تكن الحاضرة الكبرى الاولى في العالم وحسب بل كانت الام الفعلية لكل المدن العظيمة التي اعقبتها في التاريخ.ان مدنا مثل باريس ولندن ونيويورك وموسكو في تعدديتها وفي اندفاعتها كمدينة وموزعة للمعرفة والحضارة الانسانية انما هي في الواقع سليلات بابل نبوخذ نصرص١٩٩) ولم يفت جبرا ان يشير الى الطابع المعماري الذي شيدت عليه بغداد، ولم ير في شكلها الدائري اسلوبا طارئا،لان معظم المدن الاشورية كانت تشاد بنفس الشكل الدائري كما كشفت الحفريات الاثرية عن ذلك بهذه اللمسات متعددة الجوانب اوجز جبرا البعد الاول الذي اسهم في خلق كيان مدينة كبغداد.وفي عام ٥٠٠ قبل الميلاد توقف نبض العطاء في مدن وادي الرافدين التي تحولت الي عدد من المستوطنات عديمة الشان يتحكم فيها اسياد اجانب..ص٢٠٠

يجب ان ننتبه هنا الى جبرا لم ينظر الى الماضي بعين واحدة بل حدق فيه بعينين واثقتين واطال التأمل فيه. الماضي ليس هو الوقت المعاش الذي فات اوانه وتركناه خلفنا ثم اصبح ارثا

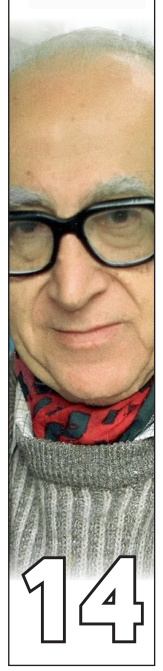

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1806)
السنة السابعة
الخميس (27)
آيار 2010

شارع الرشيد ١٩٥٠

هامدا.اذ ان من الممكن استقراء الماضي ثم بعد ذلك نرى صلة الحاضر بالماضي استقراء لما وقع.ويندفع جبرا في تمثيل علاقته بالماضي قائلا(الماضي هو سفينتي الى الحاضر) وهكذا يبدو لنا الوجه الحقيقي لكل من الحاضر والماضي دون ان نفرط باحدهما على حساب الاخر او نختزل اهمية الحاضر وتجاهل الماضي او العكس ولا بد لنا من ان نقيم صلة ما بينهما.لذلك نستطيع ان نفكك الحاضر الي عناصره الحقيقية(اذا حاولنا العثور علي جذور للماضي فيه...ص١٦٨

الاصرار الواضح في هذه العبارات يجعلنا في مأمن من المبالغة..او المغالطة او الوهم الذي قد يبدو مسيطرا على يقين جبرا.هل يمكن ان نتخيل مدينة بابل بكل عظمتها ــ وعلي مختلف الاصعدة ـ بلا وريث..وغائصة.هذا الجذر التاريخي الذي تحدث عنه جبرا بهذه العفوية والبساطة..كان فعلا خارقا ينتظر ان يتجسد مرة اخرى وفي مدينة اخرى لها ذات السمات لكن دون ان تندثر بل لتبقى فقط.

لهفة العاشق

في الحقيقة انتظرت بابل على حد تعبيرجبرا زهاء ١٢قرنا الى ان وجدت نفسها اخيرا تنبعث بكل بريقها وبهائها علي بعد ثمانين كيلو مترا منها

انا اجد في كلمات جبرا مغامرة نقدية.. وقد يشاء البعض تسميتها رؤيا نقدية.. لكني افضل النظر اليها على انها مغامرة بكل ما في الكلمة من معنى.مغامرة جبرا تحاول ارضاء لهفة العاشق لديه من خلال ايمانه بعلاقة الحاضر بالماضي وتلعب كلمة تنبعث ــ بالاضافة الي كونها بعدا ثانيا في نظرة جبرا ـ دورها الكبير في تحديد الصلة القوية بين بغداد وبابل. الانبعاث ــ كبعد ثان ــ هو قدر بغدادي بحت..لا يمكن ان يتوفر لمدينة اخرى.. كما انه يحطم سطحية النظرة الضيقة التي تمنح بغداد موعدا محددا للولادة في عام ٧٦٢م واخشى ان تمنحها ذات النظرة موعدا للموت..اذن لدينا هنا انتظار بابلي وبعث بغداد..يالهذا التناغم العميق في دلالته اذ لا بد ان تتطابق بغداد مع الجذر الذي انبعثت منه..مع تلك المدينة التي كانت في يوم ما زاخرة بكل شيء لكنها كفت عن الانتظار حين وجدت وريثة شرعية لخلودها تمثل في مدينة بغداد.

ان البعد الاول ــ الجذر التأريخي ـ بكل حيويته والبعد الثاني الذي اشرنا اليه بكلمة واحدة هي: الانبعاث..اقول ان كلا من البعدين المتضافرين شكلا بكل ملامحهما مادة البعد الثالث وطابعها الحالم.ما الذي اراد ان يصل اليه جبرا في مغامرته.فلديه في خلفية المشهد الموغل في القدم حضارة عريقة تقف في مقدمتها بابل حيث تتفرد بعظمة صابرة وهي تنتظر انبعاثها في مدينة اخري.هل كان يريد ان يشعر بالتطابق التام بين مدينتين كبيرتين تمثل احداهما الماضي وتمثل الاخرى الحاضر ..دون ان يكون هناك فارق بينهما. هل كان يريد ان يلمح تمخض الصيرورة عن مدينة مثل بغداد؟.. اين اراد جبرا ان يصل وهو يجوب عمق التاريخ بكل كثافته . ببساطة كان جبرا يحاول الوصول الي اعتاب حلمه.. اي الي البعد الثالث لنظرته الخاصة الي بغداد كمدينة فاضلة.ان مادة حلم جبرا غريبة بعض الشيء لو قراناها كرؤيا عابرة لا تمت الى حقيقة نظرته بصلة.حلم جبرا اعمق من هذا ،انه بعد ثالث لا بد ان يتحقق لانه اشبه بنتيجة لمقدمة صحيحة.فهل هناك مقدمة اكثر صحة من مدينة عريقة كبابل انتظرت قرونا طويلة كي تنبعث من جديد في كيان مدينة ثانية اسمها بغداد.هذا منطق المغامرة النقدية.هل يجوز ان نستخلص نتيجة خاطئة من تلك المقدمة؟..او هل يجوز ان لا يكون لجبرا بعد ذلك حلم يتمنى ان يراه حقيقة واقعة؟ مادة حلم جبرا بحد ذاتها لم تكن غريبة او غير واقعية،انها تنسجم مع اصالة المشهد الخلفي لمدينة رائعة كبابل وانبعاث مدينة لها نفس سمات مدينتها الام

لحلم جبرا مساحة...(بغداد سوف تتسع رقعتها لتصبح اكبر من بغداد المنصور باكثر من مئة مرة،وقد عادت مرة اخري الي شكلها الدائري ــ ولو انه مفتوح ــ مع الفارق المذهل في المساحة من ٥كيلومترات مربعة ايام خططها المنصور الي اكثر من الف كيلو متر مربع اليوم... المصدر السابق ص٢٠٥

لحلم جبرا حركة وصخب....(وسوف يبدا مخططوها في تنظيم شوارعها وابنيتها واسواقها واحيائهاولنا ان نتوقع ونصر عليه ونشارك فيه مع مؤسسات التخطيط العالمية ويبدو ان دينامية المدينة تتحدى قدرات المخططين وتصوراتهم باستمرار.منذ اواخر الخمسينيات وحتى اليوم عرفت بغداد ما لا يقل عن اربعة مخططات اساسية والمدينة لم تعط حقها بعد...المصدر السابق ص٢٠٦)

لحلم جبرا ابطال بغداديون...(وسوف يزداد عدد سكانها علي نحو لا احسب ان بغداد عرفته في عهد الرشيد فيبلغ زهاء ٩ملايين وهومعدل كبريات عواصم العالم في هذا العصر ولكنه رقم يجب ان يوقفنا للتروي...ص٢٠٦

هذه الملايين من البشر في هذه المدينة العملاقة ما الذي سيفعلونه في كل يوم..ما الذي سيصنعون ؟وما الذي سيكتبون؟

ثم يتساءل جبرا(هل هم مستهلكو حضارات الغير وذلك امر سهل وكسول اذا توفر المال واهمل التوقد ام انهم مبدعو حضارتهم العربية الجديدة.. اني ارى بغداد ـ وكما رايتها ـ منذ سنين طويلة بلغة الفكر والابداع والنضارة والتوهج..

كان لا بد من نقل كلام جبرا وهو يروي بعضا من تفاصيل حلمه وهو كما راينا بعد ثالث يرسم مع البعدين السابقين مغامرة نقدية جميلة بطلها فلسطيني زار امكنة كثيرة.لكنه في بغداد اثر ان يتريث ليروي لنا قصة عشقه مع هذه المدينة الاسطورية.

المدن واليوتوبيات

جذر تاريخي ..انبعاث..حلم الا يمكن ان تكون هذه الكلمات او الابعاد الثلاثة قوة داخلية تخلق مدينة فاضلة حقيقية. وليست مدينة مثالية بلا لحم ولا دم.. بل هي بنت الارض وقدرها ارضي ايضا لا عقلي..كما حدث في كل المدن واليوتوبيات .بغداد هذه المدينة التي كانت صورة مجسدة من بابل ولدت في شكل دائري وستكبر وهي تنتظر حلم جبرا بكل تفاصيله...فالذي احلم به.. يتابع جبرا رواية حلمه لنا...(فالذي احلم به في مطلع القرن ٢١ هو ان يسال احدهم رجلا قادما من بغداد..هل ان بغداد مدينة كبيرة ..فيجيب :نعم..ففيها ١٤ مسرحا و١٤ كلية و١٤مكتبة عامة و١٤ متحفا و٤٠مطبعة كبيرة و٤٠ مستشفى ٤٠ معهدا للبحوث العلمية و٤٠ قاعة للفن وهكذا.لكن بغداد في واقعها الراهن ـ في تلك اللحظة التي كان جبرا يتحدث فيها عنها وهو يستلهم حلم مغامرته.. كانت رائعة،مسالمة رغم كل عصور القهر والموت. وفتية رغم الحرب..كانت (مكانا لا يفقد المرء فيه قياسه الانساني،ويجد فيه خلوته اذا اراد كما يجد فيه سعادته وحريته وكرامته وهذه كلها ميزات المدينة العظيمة)ص٢٠٧

ان عشق مدينة ما بهذه المغامرة..وبهذا الاسلوب..والقدرة علي التواصل معها من خلال ايجاد ابعاد لتكريس ضراوة هذا العشق..اقول ان عشقا هذه طبيعته يسعى اولا: لاكتشاف مدينة بغداد وثانيا: لصقل وجودها الخفي ليكون مرئيا ومشعا لنا.ثمة تساؤل يطرح نفسه:ما رد فعل جبرا لو عاد اليوم الى بغداد.كيف سينظر اليها..وماذا سيقول عن احوالها.ربما لن يصدق ما يراه او يستغرب فداحة الخسارات التي لحقت بها.هل يمكن ان تنخر سوسة القتل حلمه الرصين.هل يمكن ان تنطفيء شرارة المغامرة في اعماقه،وبالتالي يخبو بريق مدينته الفاضلة بغداد.ان حلم جبرا العريض المستند الى منطقه الفني ربما يلوح كصرخة قتيل يطلقها قبل مفارقته للحياة. كم اتمنى الان ان اسمع اجابة جبرا وهو يرى ما يحدث لمدينته الفاضلة ..هل يكرر ما قاله سابقا..احلم ... ام يفضل الصمت علي الاجابة.

جبرا يهمس وكانه يتحدث عن حقيقة ستقع في يوم من الايام(اني اراها تصب فيها المعارف والعلوم والفنون فتضيف هي اليهاص٢٠٧)ويهمس...(فتضاعفها) ويهمس...(وتعيد توزيعها على العالم) ويهمس..(فخورة بتعدديتها كما كانت تفعل امها العظيمة بابل، وكما كانت هي تفعل قبل الف سنة اذ تضع للانسان تقدمه في المادة والروح...)ص٢٠٧

ويهمس...وذلك مسؤولية كبيرة ولكنها مسؤولية رائعة

ويهمس...واهل بغداد ـ كما كانوا دائما ـ هم اكفاء لها وقادرون عليها.

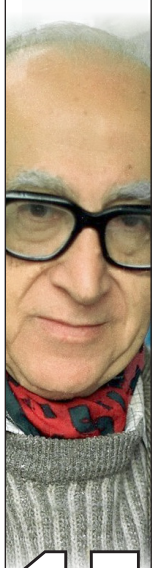

تدمير(وطن) جبرا إبراهيم جبرا

د. رياض الاسدي

ربما يكون الشيء الوحيد الباقي على الأرض ماديا وماثلا الذي خلفه الكاتب والرسام والناقد التشكيلي والمترجم جبرا إبراهيم جبرا (١٩١٩- ١٩٩٤) هو هذا المنزل المتواضع في المنصور ببغداد. عاش جبرا معظم حياته في العراق وكتب روايات كثيرة عنه: صيادون في شارع ضيق، السفينة، البحث عن وليد مسعود وغيرها. يقول جبرا : لقد بنيت هذا المنزل طابوقة طابوقة، كما يفعل كل العراقيين في بناء منازلهم وكما هم يعانون ويتفصد العرق من جباههم في ذلك: هذا كل ما بقي من (وطن) عاش فيه وتمرّغ بترابه وتشمم عبق نباتاته.

جبرا عراقي بروحه وقلبه وعينيه، تشرب معنى العراق والعراقيين وعاش رؤاهم. لكنه ما كان سيحسب أن قسما منهم سيتفلسطنون!. وهو لم يبق له من فلسطين إلا أحلام مقدسية هائمة تراوده في منامه وتنبجس كلمات على أوراقه أحيانا. وفي هذا البيت هناك في بغداد وثائق الرجل وتخطيطاته ومشروعاته، فجبرا إلى جانب كونه روائيا هو ناقد تشكيلي ومترجم من الطراز الأول وباحث في الجماليات المختلفة في الفكر وعلى اللوحات.

وبقي جبرا في هذا المنزل سنينا طوالا : غليونه وكتبه ولوحاته ومشروعاته وأحلامه وزيارات أصدقائه.

كان جبرا متنوعا في عطائه، دؤوبا، يعمل بلا كلال ولا ملال، هكذا هو حال معظم الفلسطينيين الذين وقعوا في الشتات. لا شيء يقيهم غائلة العوز والغربة والموت غير العمل. يعملون حتى وهم مرضى. وكنا في عقد الستينيات من القرن الماضي.

وجد جبرا أخيرا في بغداد وفي المنصور حيث يقع منزله وطنا آخر، باقيا، ماثلا، يشبه المأوى، يقيه حر الصيف وبرد الشتاء وغائلة الأيام. وما كان جبرا يحسب أنه وطن دائم فقد بقي الرجل مقدسيا ومن بيت لحم حتى آخر يوم من عمره؛ لكنه وطن ربما إلى حين.. وقد يكون جبرا يعلم في رؤاه أن ليس ثمة وطن ثابت لأولئك الذين فقدوا أوطانهم على مرّ التاريخ لذلك بقي يحلم بوطن الطفولة الضائع. ثم ضاع منزل جبرا هذا أيضا حيث دمر بفعل عمل إرهابي ونزل البيت على محتويات الكاتب وتاريخه وأحلامه.بعد تدمير البيت لم يعد ثمة وطن لجبرا

قدم جبرا إبراهيم جبرا للقارئ العربي أبرز الكتاب الغربيين وعرف بالمدارس والمذاهب الأدبية الحديثة، ولعل ترجماته لشكسبير من أهم الترجمات العربية للكاتب البريطاني الخالد، وكذلك ترجماته لعيون الأدب الغربي، مثل نقله لرواية «الصخب والعنف» التي نال عنها الكاتب الأميركي وليم فوكنر جائزة نوبل للآداب.

ولا يقل أهمية عن ترجمة هذه الرواية ذلك التقديم المهم لها، ولولا هذا التقديم لوجد قراء العربية صعوبة كبيرة في فهمها أعمال جبرا إبراهيم جبرا «. ع

١- في الرواية:

صراخ في ليل طويل - ١٩٥٥

صيادون في شارع ضيق - بالانجليزية ١٩٦٠

رواية السفينة - ١٩٧٠

البحث عن وليد مسعود - ١٩٧٨

عالم بلا خرائط - ١٩٨٢ بالاشتراك مع عبد الرحمن منيف

الغرف الأخرى - ١٩٨٦

يوميات سراب عفان

شارع الاميرات

عرق وبدايات من حرف الياء- مجموعة قصصية

البئر الأولى - سيرة ذاتية

٢- في الشعر:

تموز في المدينة ١٩٥٩

المدار المغلق ١٩٦٤

لوعة الشمس ١٩٧٨

٣- الترجمة:

هاملت - ماكبث - الملك لير - عطيل - العاصفة - السونيتات لشكسبير

برج بابل - أندريه مارو

الأمير السعيد - أوسكار وايلد

في انتظار غودو صأمويل بيكيت

الصخب والعنف - وليام فوكنر

ما قبل الفلسفة - هنري فرانكفورت

٤- دراسات:

ترويض النمرة

الحرية والطوفان

الفن والحلم والفعل ١٩٨٦

تأملات في بنيان مرمري

النار والجوهر

الأسطورة والرمز

جمعت أعماله النقدية في كتاب بعنوان « اقنعة الحقيقة.. أقنعة الخيال «

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير : علي حسين
التصميم : نصير سليم
الاشراف اللغوي : يونس الخطيب